حكايات الغريب

أجزاء من سيرة
عبد الله القلعاوى

« تقرير عام عن الأعمال القتالية للمجموعة السابعة »

. . من المعروف أن جميع من تحدثوا عن هذه المجموعة أطلقوا عليها اسم « مجموعة القلعاوى » بل إن المتخصصين ، ومنهم بعض قادة الوحدات والقطاعات التى عملت من خلالها المجموعة ، وطيارو الهيلوكبتر الذين اشتركوا فى نقل الرجال ، كلهم لم يستخدموا الاسم الرسمى عند حديثهم عنها ، لهذا فإننا نميل إلى الأخذ بتلك التسمية التلقائية التى رددها المواطنون أيضا . . فأعمال المجموعة لا قت صدى من نوع خاص بينهم ــ بغض النظر عن الاسم الرسمى المستعمل فى المكاتبات السرية وخطابات الشئون الإدارية ــ وكما تفيد مصادرنا فى الأرض المحتلة أن العدو أطلق عليها اسما رمزياهو « الفرقة الخاصة » ومن الثابت أن معلوماته حول المجموعة مضطربة جدا ، لم ترق إلى مستوى اليقين من وجهة نظره ، ويرجع هذا الى أسباب عديدة ليس هذا مجال تفصيلها ، لقد اتسمت الأعمال القتالية بملامح خاصة وحتى نستطيع الإلمام بطبيعتها لا بد من إشارة أولية إلى مسرح العمليات .

١ ـ نطاق العمليات

جرت العادة والقواعد العسكرية على تكليف كل وحدة مقاتلة بمهمة معينة يحدد لها إطار معين يضم أهدافا منتقاة للتعامل معها ، ينطبق هذا على كافة التشكيلات بدءاً من السرية إلى الفرقة إلى الجيش ، لكننا لا نجد هذا منطبقا على مهام مجموعة القلعاوى ، يبدو قولنا واضحا من الخريطة الضخمة لمصر والبلاد المحيطة بها والتى تحتل ـ حتى الآن ـ جدارا بأكمله من غرفة القلعاوى ، صنعت هذه الخريطة من الجبس البارز الملون ، حملت دبابيس حمراء صغيرة فوق أسماء بعض المناطق بسيناء ، كل دبوس يعنى عملية تمت ضد هدف ، توجد مجموعة أخرى من الدبابيس الخضراء وهذه تعنى أهدافا سوف تهاجم ، من الخريطة يتضح أن مسرح عمليات المجموعة سيناء كلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن عددا من أبرز الخبراء العسكريين الذين زاروا البلاد بعد الحرب وتوفرت لديهم بعض المعلومات أبدوا دهشة وإعجابا بالمجموعة ، ونورد فيما يلى تلك السطور التى كتبها الجنرال هان كريستيان ، رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية والعسكرية ، الذى زارنا خلال الفترة القصيرة الماضية .

« . . يبدو واضحا أن تلك المجموعة من الرجال قد خلقت لنفسها قوانينها الخاصة ، إذ حطمت الكثير من القواعد العسكرية المتعارف

عليهـا ، ولـلأسف غـير متـاح الآن الاطـلاع عـلى ظـروف تكـوينهـا وعملها . . » .

ونقول إن مجموعة القلعاوى هاجمت أهدافا تقع فى رأس محمد بأقصى الجنوب من سيناء . وأهدافا أخرى فى بالوظة ورمانة شمال شبه الجزيرة ، فى لسان التمساح ورأس العش ، وسدر ، وإيلات ، وعلى امتداد منطقة الخليج ويقول الذين عملوا مع القلعاوى إن الخليج لعبته ، وتتردد أقوال لم نذكرها كحقائق مفروغ منها ـ لأسباب عديدة ـ أنه قام بعديد من المهام فى مناطق مختلفة من العالم ضد العدو الصهيونى ، ليست بالضرورة أعمال قتال ، إنها تضم مهام استطلاع وتعقب بعض العناصر المعادية ويوجد عدد من البرقيات لدى أسرته وصلت فى الأسابيع التالية ليوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، من فدائيين فلسطينيين ، ومقاتلين من جنسيات مختلفة ، وقع بعضهم بالأحرف الأولى ، وإذا ما أتيح للمهتمـين بسيرتـه مقابلة قـادة الوحدات الذين واجهوا العدو من رأس العش شمالا حتى مواقعنا المطلة على البحر الأحمر ، فإنهم سيسمعون قولا يتردد كثيرا « لقد مر القلعاوى من هنا » ، أى أنه إستخدم المنطقة التى يرابط فيها التشكيل كقاعدة انطلاق ، سيجدون أنه عبر فى توقيتات مختلفة فمن نقطة معينة تقع فى مواجهة لسان بحيرة التمساح عبر مع الرجال أربع مرات خلال فترة زمنية قصيرة ، عبر فى الصباح ، فى الغروب ، فى الظهيرة ، فى منتصف الليل ، أول ضوء وفى

آخر ضوء ، ونظرا لأهمية شهادة هؤلاء القادة نورد فيما يلى بعضا مما قالوه ، ومعظم هذه الشهادات جمعها رجال القلعاوى على أشرطة كاسيت صغيرة بهدف الاحتفاظ بها كوثائق .

* * *

يتحدث العقيد أركان حرب (م . أ . ع) قائد تشكيل مقاتل فى منطقة البحر الأحمر .

. . . أتذكر هذا الوقت بدقة فالثوانى والدقائق ذات أهمية خاصة ، بالضبط الساعة الثانية صباحا وخمس دقائق عندما وصل القلعاوى ورجاله ، الليل عندنا مختلف لا يوجد أى مصدر ضوء صناعى على بعد عشرات الكيلو مترات ، لا يبدو لا معاً إلا النجوم وضوؤها الخافت وعددها الكثير . كل شىء يعمق صوت الليل حتى صوت البحر الغامض عندما يصطدم بالشاطىء الصخرى ويرتد عنه ، يحوى تحذيرا . هنا يكتسب الصوت الآدمى العادى أبعادا ودلالات ، إن تسعل فهذا يثير انتباه الكمائن والدوريات المتنقلة وجنود الملاحظة لهذا . . (فترة صمت) . . أوشك الآن أن أستعيد الأصوات المحدودة الخافتة التى صاحبت مجىء عبد الله عدد الرجال أكثر مما قدرت ، وقف صامتا ، لم يصدر أمرا بصوت عال ، يتحرك كل منهم وكأن ثمة إتصال خفى يشدهم

إليه ، كأنهم يقرأون فى وقفته ، فى استدارته ، فى عقد يديه أمام صدره تعليمة أو أوامر معينة. ، أذكر وقع خطواتهم الخافتة ، يمرون أمامى ، لا تبدو منهم تفاصيل إلا للحظات مارقة . يتجهون إلى القوارب الراقدة فى البحر والظلام ، كأنهم يتجهون لقتال الليل نفسه ، يدخلون فيه . سمعت الكثير عن القلعاوى ، لم أره ، هو أقدم منى باربع دفعات كما أن مجال الخدمة الخاصة جعلنى لا ألتقى به . لست أنا انما معظم زملائى حتى زملاء دفعتى ، إذا ذكر أحدنا أنه رآه فيقترن هذا بعمل قتالى ، إذا رآه أحدنا فيتبادر إلى ذهنه خاطر لا يمكن نفيه . . الله ، إن القلعاوى ما زال يعيش ، فى هذه الليلة وقفت على مسافة متر واحد من القلعاوى ، لم أساله عن المهمة التى سيقوم بها الآن لأن من طبيعة أعماله السرية ، أو الطرق التى يسلكها فى الناحية الأخرى ، مهمتى محدودة تغطية الرجال أثناء الإبحار وتأمين عودتهم . . (صمت) أرى القلعاوى وكأنه أمامى ، عيناه تنظران فى خط لا يحيد ، وجهه كان متطلعا إلى أعلى باستمرار حتى لو أطرق ، يبدو كأنه يقف دائما فى وضع صفا ، حذاؤه جلدى ، ثيابه مشدودة إلى جسده ، سترته مليئة بجيوب عديدة . هو مصمم هذه الثياب ، تتسع لأكبر عدد من القنابل والذخيرة وأدوات القتال عندما اتجه إلى نقطة إلابحار لاحظت شابا قصيرا خفيف الحركة يتبعه . صوت المجاديف . هدوء السواد لا يكشف اتجاههم ، ثقل الليل ، لا فرق بين

المياه والأرض . المادة واحدة فيها عدا رائحة البحر . أصغيت طويـلا ، إبحارهم أضاف عمقا للظلام والليل . هناك فوق نقطة معينة ، فى اتجاه محدد . . يتحرك القلعاوى . .

* * *

نص محادثة لاسلكية جرت بين القلعاوى . . وأحد الضباط الكبار الذى وقف يتابع عملية للمجموعة من فوق الشاطىء الغربى للخليج ، تم تسجيل هذه المحادثة فى ديسمبر ٦٩ . . فكت رموزها فيما بعد .

القلعاوى : مستمر . .

الضابط : نشاط الطيران فوق المنطقة . . أفضل التقدم نحو مكان الإبحار .

القلعاوى : استطلاع الهدف ضرورى . .

الضابط : انهى العملية .

القلعاوى : (صمت) .

الضابط : عد يا عبد الله . . عبد الله . . سامح وليلى فى انتظارك . .

(القلعاوى يغلق الجهاز . .)

* * *

يتحدث المقاتل (ل) أحد رجال المجموعة :

بعد أن اختارنى للعمل معه . وفى أول لقاءبه . قال إن هذه المجموعة سوف تحارب عدو مصر فى كل مكان . وتلاحقه وتضربه ، الجميع هنا يقضون أيامهم إما استعدادا للقتال أو فى حالة قتال فعلى . كل منهم جاء إلى الحياة ليقتل . طلب منى أن أحدثه عن نفسى . وفى البداية ظننت أنه يريد الالمام بالمعارك التى خضتها لكنه رفع ملفا أزرق ، قال إنه يضم أكثر مما سأقول ، فهمت ، حدثته عن والدى . عن الخطابات التى أرسلها كل شهر إلى عيالى . ما اشتريته لهم فى بداية أجازاتى ، حدثته عن انتظار أهلى عند الجسر ، عن رائحة الغيطان الليلية ورائحة الصحراء ، لون المساء فوق قريتنا الأصوات الليلية فى الجبل ، مرور الهواء بين شقوق الصخر وتدحرج الحصى وما يتركه فى النفس عواء ذئب ضال أو باحث عن فريسة ، تكلمت عن الساقية القديمة التى ركبتها طفلا ، ظننت عجلتها ضخمة جدا ، والبئر بلا نهاية ، بعد سنين كلما مررت بها أدهش وأنا أرى بئر طفولتى السحيقة مجرد حفرة ، حدثته عن رائحة الفول الأخضر وامتلاء الكوب حتى الحافة بالماء وصرير عجلات الترام عند المنحنيات وحدود المدينة وأول امرأة نراها بعد عودتنا تمشى فى الطرقات الآمنة ، الرجال فوق أسطح القطارات . وعشرات الصبية يركبون جرارا زراعيا . فلاحات حملن قصعات المؤنة وذهبن لبناء قاعدة صواريخ . صوت عجوز منهن

تقول ، « ما هو ده حيحوش البلاعنا » ، جندى يجلس القرفصاء فوق رمال الصحرء ، نفس جلسة أبى بجوار المصرف المجاور للزراعية ، لم يستوقفنى ، لم يستفسر . لم يطلب إيضاحا ، لا . . . لم يصمت ، أذكر الموقف الآن فأذكر أنه بادلنى الحديث مع أنه لم يلفظ حرفا . تجعيدتان عند ركنى فمه كأنه أصغى إلى خبر مؤثر . أوحزن قديم أو تساؤ ل محير أو حنين إلى مسقط رأسه . يقولون إن هاتين التجعيدتين ظهرتا بعد موت عاصم ، زميل دراسته . زميل الكلية ، مؤسس المجموعة معه وساعده الأيمن فى كافة العمليات التى تمت حتى ذهابه فى مياه الخليج . سمع صوت سقوط جسم فى الماء ولم يسمع أحد صرخة أو استغاثة ، منذ هذا الحين اختفى عاصم ، كثيرا ما لمحته يقف عاقدا يديه ، أراه من بعد ولا أتبين ملامح وجهه . لكننى أثق من وجود هذا البحث فى عينيه ، ربان يستطلع أرضا لم تظهر بعد ، يستمر واقفا لفترة ثم يستدير فجأة ، لا أستطيع أن أتخيله يمشى متسكعا فى ميدان مزدحم ، يسافر إلى مصيف ، يدخن سيجارة أو نرجيلة بمقهى . كما عرفنا أن القلعاوى لم يحصل على أى أجازة ميدانية منذ عام ١٩٦٧ . مع أنه ينظم أجازاتنا بنفسه ، ويمنح من يسافر بعيدا يومين إضافيين حتى تكفى مدة السفر ، أقول الآن إننى عندما أفارق المجموعة متجها إلى بلدتى أشعر بخجل لأننى أسافر وأتركه . فى أيام الجمعة يجىء مع سامح وليلى ، تعرفهما ويعرفان كلا منا باسمه ، بماذا يوحى لنا سامح ؟

أراه دائما كأنه رجل كبير صغير الحجم ، عندما جلسنا فى صالة البيت . أضم شفتى بأسنانى جاء ممسكا عددا من النياشين والأنواط وراح يقدمها إلى الحاضرين متحدثا عن المناسبة المرتبطة بمنح كل منها إلى القلعاوى الآن يتحدث كل منا إليهما بالتليفون مستفسرا عما إذا احتاجا إلى شىء ما ، أدير قرص التليفون متوقعا صوت القلعاوى وعندما يرد سامح أو ليلى أحاول أن أبدو ظريفا ، يقولون إن القلعاوى يتصل بهما قبل خروجه إلى العدو لكن لم يره أحد يحدثهما . عندما يغلق الباب تبدو شظايا الضوء من خلال المساحات البيضاء التى بهتت من الطلاء الأزرق ، يطلب شايا ، دخلت عليه مرة . رأيته منبطحا فوق الأرض . حوله خرائط ، كتب مفتوحة لم تغلق ، مساطر أقلام ملونة ، أدوات هندسية ، شريط طويل من صور فوتوغرافية متعاقبة ربما التقطها بنفسه إذ إنه قام بتصوير بعض أهداف العدو بمفرده . أنا لم أصحبه مع أن مهمتى القتالية تغطيته خلال الهجوم فى الليل . فى الصباح . فى العصر . بمجرد انتهائه من وضع خطة العمل . تصبح مجرد أوراق جاهزة للتصديق عليها من قبل المستويات الأعلى . نراه يخرج من المكتب ، يتحدث إلى بعضنا ، يصعد التبة الرملية بسرعة ، يقود دراجة بخارية يلف بها أرض التدريب مرات ، ومرات . يدرك الرجال أن ثمة خطة اكتملت . لكل منهم دور محدد الآن . إن القلعاوى يبدو مرحا . خفيفا . ربما صاح على أحد الرجال بدون أية مقدمات يسأله عن

أحواله ،! عن صحة أولاده ، مصاريف المدارس ، ربما استفسر عن أحوال أم مريضة بالسكر أو أب يعانى متاعب الشيخوخة . عن تفاصيل مشروع زواج تبطىء خطواته بسبب عدم الحصول على مسكن أو متاعب مع أهل العروس . فى البداية يفاجأ المنضم إلى المجموعة حديثا بأسلوب القلعاوى المفاجىء . المباغت تماما كهجومه أو ظهوره فجأة وراء خطوط العدو ، اعتدناه ، يعرف كل شىء عنا ، أسماء أطفالنا ،! عدد الأقساط التى يسددها كل منا ، بل قيل إنه يحدد دور كل منا طبقا للحالة النفسية للفرد . أثناء عبورنا المياه أو مشينا فوق الأرض هناك . برغم تباعد المسافات بين الأفراد . فإن القلعاوى يتمثل الحالة النفسية التى عليها مقاتل الاستطلاع فى المقدمة أو فوزى وحسان فى أقصى المؤخرة تماما كالقلب يدفع الدم إلى أقصى أطراف الجسم لكن هل يرى الدم أثناء وصوله إلى أطراف الأصابع ؟ كل مقاتل باتجاه الهدف كوحدة مستقلة . شعور يتملك بأن القلعاوى يراه . يدرك ما يتردد بين طيات نفسه ، يرص[illegible] الخوف ، دفقة الشجاعة . شجن ذكرى معينة . ماذا يجعلنى [illegible] للمشى أياما ؟ أفنى فى قتال ، ماذا يجعلنى أوقن أننى عشت بما يكفى ولو فقدت عمرى فسوف أقبل هذا ببساطة ، أهو الوطن ، الحقد على العدو ، أو التاريخ الذى جعله القلعاوى مادة فى برنامج تعليمنا ، أهى طريقة حديثه عن شهداء المجموعة وضرورة الثأر لهم . يقول أحد زملائى . بعد

كل حديث للقلعاوى أشعر أننى ازددت ثقافة ووعيا . يقول القلعاوى باستمرار ، لابد من معرفة العالم ، هناك شيء مباشر يمكننى أن أشير إليه ، أمسكه بيدى ، أحسه ، أشعر بوقع نظراته . . له كيان وحركة ووجود . يمكننى القول إننى أفعل هذا لأثبت له أننى كفء ، اننى عند حسن ظنه ولم يخطىء فى اختيارى مقاتلا إلى جواره . أرى القلعاوى أثناء سفرى واقفا فى خضرة الحقول ينظر إلى المجهول من خلال منظاره ، أراه بيننا فوق نقطة ما من سيناء . نفاجأ بهجوم مضاد . أتقدم منه . أقول له . . « يا أفندم اسمح لى أن أحمى انسحابكم » ، ! أقبل راضيا وأنا أعلم ما ينتظرنى بعد عدد معين من الدقائق . قالوا عنه إنه محجب وأن من يقاتل معه لا يصاب وأن رجلا سودانيا عجوزا أعطاه حجابا وأن هذا الحجاب يحمله فى مكان ما من ثيابه وأنه يمنع نفاذ الشظايا إلى جسده . لم أر الحجاب ، قيل إنه قادر على رؤ ية الرصاصة والشظية فى مسارها أنه ينفذ بين الطلقة والطلقة . قالوا إنه عاش دائما بعقلية من يمر مرورا عابرا بالدنيا لهذا اندفع دائما فى اتجاه الخطر . قال عنه البعض . « القلعاوى وش موت » . أراه صامتا كأنه يطمئننى ، أسمع صوته دائما فى أذنى . وفى لحظات انتقالى من اليقظة إلى النوم كل ليلة . مع أنه لم يتحدث إلى كثيرا ، لا أذكر صوته غاضبا . غضبه صامت باتر ، لم يتحدث إلى كثيرا أنا أقرب الناس إليه فى وضع الهجوم . لم يرتفع صوته فى تمام الساعة الثانية عشرة والربع من ظهر الجمعة

١٩ أكتوبر . قال كلمة واحدة صداها متصل فى أذنى حتى الآن . واضح كالطلقة الكاشفة التى تجرح صدر الليل بلونها الأحمر .

« غطينى . . . . » .

* * *

نص حوار جرى بين اثنين من ضباط مخابرات العدو أمكن الحصول عليه . . . ونرى ضمه إلى مقتطفات السيرة لأهميته .

المكان : مقهى قديم بالشارع الرئيسى بمدينة العريش المحتلة .

التوقيت : الساعة السادسة بعد ظهر أحد أيام نوفمبر الأولى عام ١٩٧٣ .

ضابط (١) : إننى أميل إلى وضع الأمور فى حجمها الطبيعى .

ضابط (٢) : ما أسهل هذا بعد وقوع حدث كبير . . حرب . . معركة . . الحقيقة تضيع تماما .

ضابط (١) : كنت ستقول شيئا . . ما هو ؟

ضابط (٢) : تبدو الحقائق شاحبة بعد انتهاء الحدث . .

ضابط (١) : حصولكم على جثته . أمر لا يقل أهمية عن موته .

ضابط (٢) : قلت إنه من السهل اقتراح كل شىء بعد انتهاء الموقف نفسه .

ضابط (١) : وددت لو تأملته حيا أوميتا . . فى معلوماتك عنه هل تعرف كم عدد الساعات التى بإمكانه أن يمشيها ؟

ضابط (٢) : توشك أن تردد بعض ما توهمه رجالنا الذين فرغناهم لقتله . . لا أعرف بالضبط قدرته على المشى . . بعضهم نسب إليه أمورا خارقة كقدرته على المشى أسبوعا متصلا فى أصعب الأراضى . . ستقول لى قدرات الإنسان وإمكانياته . لكننى أحفظ . . أذكر عبارة رددها عدد من الأسرى أثناء استجوابهم . . قالوا إن ثقته بقدرات الإنسان لا حدود لها . وهذا أول شىء يقوله لمن يعمل معه .

ضابط (١) : انتهى كل شىء الآن .

ضابط (٢) : ومازلت أقول . . إن الحقيقة لن تبدو كما كانت عليه أبدا . .

ضابط (١) : ربما . .

* * *

وعندما علم العقيد أركان حرب (. ق) بمشروع جمع سيرة عبد الله

القلعاوى . . طلب أجازة لمدة اثنتى عشرة ساعة ليقص حادثة معينة . .
لهذا نوردها كنتيجة لإصراره . وربما تبدو فى غير موضعها .

أنا مدين له بحياتى شهد النهاية والبداية . لم أره إلا مرة واحدة عندما حدث هذا منذ خمسة عشر عاما . اشتركت فى دورية سير لاختراق منطقة وعرة من الصحراء . أمامنا بدأ اللون الأصفر لا نهائيا . العرض كالطول . نمشى . وخط السماء لنطبق على ثابت لا يتغير ، تجردنا من ثيابنا قطعة قطعة ، حاولنا حفر الرمال لندفن رءوسنا ، شربنا بولنا ، تشققت حلوقنا ،! الشمس كمصباح قوته ألف ألف وات لا يمكن الهرب منه ، لا يمكن اليقظة ولا النوم ، وكما قيل لنا إن القلعاوى الذى اشترك كعضو فى هيئة التحكيم أبدى قلقا . لم نقلق نحن . لم تتماسك أصابعه ثم تنفرج . لم ينقل ثقل جسدة من ساق إلى أخرى يقولون إن عينيه ثبتتا فى اتجاه واحد مؤدى إلى بطن الصحراء . فجأة طلب من رئيس الهيئة السماح له بالاتجاه إلى عمق اللانهائية بحثا عن المفقودين . بسط الخرائط . يقول الذين شهدوا الموقف إنه اختار أصعب الطرق الذى يتعامد على خط سير الطابور ، حمل بعض زمزميات المياه وعددا من القنابل الصوتية ، للأسف لم يحدثنى عما لاقاه فى الجبل والصحراء . ما أعرفه أنه مشى ساعات متصلة فى درجة حرارة تقارب الأربعين وعلى مسافات معينة يفجر قنبلة حتى يلفت أنظارنا إلى أن هناك من يبحث عنا . وعندما سمعنا انفجار القنبلة

تصايحنا ، وقفنا عرايا تماما ، بدا القلعاوى لنا كأنه يخرج من باب بيت ظليل مستفسرا عما جرى ؟ . قدم إلينا جرعات قليلة من الماء فى غطاء الزمزميات . جرعات لا تكفى لبل أفواهنا . تطلعنا بشراهة إلى الزمزميات المغطاة بقماش أصفر سميك . بدا حازما حتى أننا لم نفكر فى طلب المزيد تصور حالتنا ، الجوع ، الظمأ ، الإنهاك ، الخوف ، ! مع هذا عدنا مع القلعاوى مشيا على أقدامنا . . قبل وصوله بدا مستحيلا أن نخطو مترا واحدا ! مشينا سبع ساعات معه . لم نتوقف لحظة لم نقعد لم يشجعنا إنما بادلنا حديثا وديا عاديا ، بين الحين والآخر يقدم لنا قليلا من الماء فى غطاء الزمزمية المحدود . تحدث إلى الرجلين اللذين جاءا معه حديثا موجزا . للأسف لم أعرف من هما ولا أدرى مصيرهما الآن . تقدمنا القلعاوى بخطوات ، ! كأن لغة خفية بينه وبين رمال الصحراء ووحشيتها . خلت الأرض من العلامات المميزة والكثبان ومع ذلك بدت خطواته راسخة فى اتجاه اليمين واليسار وإلى الأمام . فى الصعود والنزول ، احتملنا المشى معه ، كيف لا أدرى الآن . لم يشك أحدنا ، لم يقل لفظا ، أو ، آهة . . هذا هو القلعاوى . .

* * *

توجهت اللجنة الخاصة بجمع السيرة إلى المقاتل (ك . ى) رئيس

عمليات المجموعة السابعة . طلبت منه كتابة فصل عن أراء القلعاوى العسكرية وانطباعاته عن الحياة والناس كما عرفها (ك . ى) الذى يعتبر من أوثق الناس صلة به . لكنه رفض تقديم أى معاونة . قال إن كثيرا من الفضوليين وكتاب القصص والصحفيين السطحيين سيتخذون من هذه المادة فرصة للكتابة عن القلعاوى ، ماذا سيقولون عنه ؟ إنه عاش بطلا ؟ إنه شجاع ؟ إنه قام بعبور القناة وسيناء أكثر من تسعين مرة . هل هذا ما يجب أن يقال عنه حقيقة ؟ ثم ينسون كل شىء . قال (ك . ى) أنه لن يشارك فى استباحة دم أقرب الخلق إليه . قال إن القلعاوى يجب أن يذكر بطريقة أخرى أنه يعيش هنا ـ خبط صدره براحته ـ فى رجال المجموعة . فى كل من خدم معه ، ! ليتعقب سيرته من يرغب . لكن (ك . ى): سوف يذكرها بما يليق بالقلعاوى ، لن يبوح بأى شىء لأى لجنة ، أو صحفى . .

* * *

قسم به معلومات عن الأوسمة والنياشين :

فى حجرة الاستقبال البسيطة بمنزل القلعاوى (يلاحظ بساطة الأثاث وخلو البيت من كل ما هو زائد عن الحاجة) ويرجع البعض هذا إلى الظروف التى تم فيها زواج القلعاوى ، إذ إن أسرة زوجته عارضت الاقتران به . فاضطر إلى فرض الأمر الواقع عليهم ، تحمل القلعاوى كل تكاليف تكوين البيت ويبدو انه استكمل بعض الحاجات خلال العام الماضى اذ توجد فواتير شراء دولاب كتب ، ورديو ضخم به بيك أب وتاريخ هذه الفواتير يعود إلى شهور خلت ، ويقول البعض الآخر إن البساطة ترجع إلى شخصية القلعاوى ، لم يره أحد يعتنى بالمظاهر . بل إنه لم يرتد هو أو امرأته أو عياله أى ثياب مستوردة . وعلق على هذا يوما فى حديثه إلى أحد أقاربه قائلا : إذ لم نرتدى نحن مصنوعاتنا الوطنية فمن سيرتديها إذن ؟؟ . . فى مواجهة الصالة توجد مجموعة كبيرة من براءات النياشين والأنواط التى حصل عليها عبد الله بعد أسبوعين من ١٩ أكتوبر أخرجت السيدة ماجدة القلعاوى هذه البراءات والنياشين . وقضت ليلة كاملة تعلقها بعناية ، تملأ فمها بالمسامير الصغيرة ثم تتناول واحدا وراء الآخر لتدقه برفق حتى لا توقظ سامح دليلى ، ويبدو أن ابنى القلعاوى عرفا

الخبر فى هذه الليلة ، من الثابت أنه لم يرغب فى عرض هـذه الأنواط والنياشين ولم يعلقها على صدره نظرا لارتدائه الأفرول باستمرار . لكن شوهد مرة يتجه لمقابلة أحد القـادة الكبار ويعلق مجموعة من النيـاشين (تشخلل) على حد قول أحد زملائه الذى قال إن أى مقاتل يود لو حصل على وسام النجمة العسكرية مرة واحدة ، القلعاوى حصل عليه ثـلاث مرات . ويمكن القول إنه لا يوجد مقاتل على امتداد تاريخ الجيش المصرى حصل على مثل هذه المجموعة ، فى هـذه الليلة وضعت السيدة مـاجدة نموذجا صغيرا لطائرة ميج ٢١ فوق منضدة صغيرة كتب عليه :

« إلى العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى » .

إن عملية اقتحامكم للسان التمساح ، وتدميركم لمـواقع صـواريخ الهوك . . لمن العمليات التى سيذكرها التاريخ بالفخر والاعزاز .

مقاتل طيار زميلك
٦٩/٧/١٧

* * *

« يتحدث العقيد صابر . . وهو أحد من شهدوا اقتحام القلعـاوى للسان التمساح ومهاجمته قواعد صواريخ الهوك » .

بدأ القلعاوى مضطربا ، وعندما أعلن قراره قلت إن هذا جنون ، وقلت لرئيس عملياتى . .

« إن عودته إلى الضفة الشرقية أمر فى غاية الخطورة . . » .

لكنه كما يقولون ، لا يقبل هذا أبدا ، وشاء حظى أن أشهد إحدى هذه اللحظات التى يتحدى فيها القلعاوى الخطر والموت ، لو جرح أحد رجاله لابد أن يعود به ، لو استشهد فلابد أن يقاتل حتى يعود بجثمانه ، ربما يفسر هذا ذلك القتال المر الذى خاضه رجال المجموعة السابعة جنوب الاسماعيلية ظهر الجمعة ١٩ أكتوبر . اندفع فى اتجاه القناة . رأسه عار فهو لم يرتد خوذة قط . الاندفاع الإنسانى الأبدى فى اتجاه المصير المحدد . رفعنا درجة الاستعداد للدرجة القصوى ، وبدت السماء بصفاء يوليو منبعا للهلاك ، اضطرب قارب المطاط قليلا ، جنح إلى الشمال امتارا ، ثم استقام فى اتجاه الضفة الشرقية . وقفزت سمكة ضخمة من الماء مرات . اختفت . كقبضة صارمة بدت كتلة الدخان الناتجة عن انفجار دانة الهاون ، انبطح مع رجاله الأربعة الذين صحبوه ، قاموا ، تقدموا ، انفجرت دانات أخرى ، تجمد الدخان فى الفراغ . وسمعنا فى الدشم والخنادق والملاجىء صوتا عاليا نفذ عبر الشظايا . .

- يا سعيد . . يا سعيد . .

ينادى رجاله الجرحى ، كيف يصدر هذا الصوت المرتفع القوى من القلعاوى ، الهادىء ، المستكين . . الذى لا يتحدث إلا همسا ، اختفى عن ابصارنا ، لم نر مصدر النداء . بدا قادما من الأرض والساتر الرملى . من عند خط السماء المطبق على الأرض .

* * *

ما أدلى به أحد مقاتلى المجموعة السابعة . . لم نذكر اسمه لأن زملاءه وصفوه بأنه « مطلوب » أى أن العدو وضع اسمه فى قائمة من يحاول الانتقام منهم . .

أنا عملت مع القلعاوى . أنا أحد الثلاثة الذين عاد بهم القلعاوى من لسان التمساح . حطوت معه فوق سيناء ، رأيته طيفا ليليا ، يخطو بلا حس يسمع ، يصدر أوامره بصمت ، يمشى الساعات الطوال فيخجل الواحد منا أن يصرخ بارهاق ، بتعب ، يتحمل . . يتحمل حتى يثبت له أنه جدير بالقتال إلى جواره أنا حاربت معه ،! هو أختارنى . اختارنا واحدا ، واحدا ، حاربنا معه إسرائيل . بعد فترة معه عرفنا عنه كل شىء ، عرفنا أن القلعاوى جاء إلى الدنيا ليقاتل . لم يتحدث الواحد منا إليه كثيرا ، لكن كل خروج معه يقربنا إليه مسافات ومسافات . أنا عبرت معه ستا وثمانين مرة ، سلكنا معه الأصعب دائما ، إذا اتجهنا إلى هدف

معاد فإن ثمة ثلاثة أو أربعة طرق تؤدى إليه ، نسلك نحن الطريق التاسع ، قضينا معه الساعات الطوال فوق رمال سيناء لم يتقيد بتوقيتات ، كما يقولون إنه يندمج تماما فى القتال ، يصبح ميلاده مع بدء العمليات ، لا مجال معه لاستدعاء التفاصيل ، لرفيق الصور ، معه ينتفى الخوف القلق . ألم بتفاصيل الأرض التى نمر عليها ، أثناء عبورنا الخليج ، مياه البحر جزء من سواد الليل ، ينظر إلى النجوم ، إلى الماء ، يطلب تغيير الاتجاه عدة درجات ، يذهل الدليل بقدرته على اقتفاء الأثر أطلق أسماء معينة على مناطق الصحراء المختلفة ، توجد الآن كراسة فى درج مكتبه - (لم يدخله إنسان منذ الجمعة ١٩ أكتوبر) حتى تليفونه المباشر لم يستعمله أحد ، كثيرا ما سمعناه يرن ، أحدهم لم يعرف بعد ، فى الأيام الأولى تكرر الرنين مرات ، تمضى الأيام ويقل حتى يصبح نادرا ، لم يرد أحد ، حتى هذا الرنين الذى بدد صمت فجر الثلاثاء الماضى ، صحبه اصرار ، ايقظ النيام منا ، لم يرد أحد ، وبدا صوته قادما من صمت الليل يذكر (بعبد الله القلعاوى) - فى هذه الكراسة اسماء وعلامات اطلقها على الصخور والتلال ، اسماء زعماء اقتطع صورهم من مجلات والصقها فوق ورق أسود مقوى ، أحمد عرابى ، سعد زغلول ، ! محمد على باشا ، ابراهيم باشا ، أعرف أنه أطلق اسماء ولديه وامرأته وشهداء المجموعة على بعض مناطق سيناء ، لو سألته عن شارع قصر النيل فى وسط المدينة ربما أخطأ الرد ، ربما

لم يره إلا من نافذة سيارة ، رأيت القلعاوى يطوف بارض الطابور ، كأنه يمشى على حافة افريز مبنى ضخم ، يمشى محاذيا حديقة مزدحمة بالأطفال والنساء والرجال والصراع والمرح ، كأنـه يلامس أطـراف موجـات هدأ صخبها عند الشاطىء . أنا رأيتـه ينظر إلى السـماء الليلية عنـد أطراف معسكرنا بالصحراء الوسطى ، أيستلهم ملامح خطة ؟ أيفكر فى تطوير زناد سلاح بحيث يصبح أسرع بمقدار جزء من الثانية ، أيجهد نفسه ليفك أسرار وشوشات النجوم ، سمعته يقول ، النجـوم للرمال وشـوشة . . أعرف أنه نظم شعرا ، لكننى لم أقرأه ، لو فتحوا أدراج مكتبه ربما عثروا على بعض قصائده ، أحيانا رأيته أكثر مما أرى نفسى ، أحيانا بعدت به المسافات عنى غير أننى منذ ١٩ أكتوبر يتيم ، أمشى بساق واحدة ، وأحرك ذراعا واحدة ، ربما أستعيد ما فقدته لو طرقت الأرض نفسها ، الدروب التى سلكتها معه فوق سيناء أقول . . من هنا مر القلعاوى غير أننى الآن أطرد الأسى عنى فأقول لكل من القاه ويلقانى . . أنا عملت معه . .

* * *

ذكر بعض مشاهد متفرقة من حياة القلعاوى :

* مطعم بميدان الحسين ، ! الموائد مصفوفة فوق الرصيف ، تغرق المبانى فى الظلال ، عابرو الميـدان يسرعـون ، إنها اللحظات التى تسبق

مدفع الأفطار ، مائدة حولها سبعة أشخاص يتصدرهم القلعاوى ، ابتسامته هنا راضية ، تعكس راحة وكأن أمرا خطيرا تحقق وكأنه سيقضى عمره مجاورا للحسين . .

* يتأمل زعانف مطاط تستخدم فى الغطس . .

* السبت ٦ أكتوبر ، يدير قرص التليفون . . ماجده . . مبروك . . الحرب قامت . .

* أمام بائع كتب قديمة اعتاد فرش بضاعته على سور مستشفى الولادة وسط المدينة فى السماء غمامات بنفسجية ، يقف البائع محييا ، يقول القلعاوى . « أهلا عم كامل . . » .

* على باب طائرة هيلوكبتر ، تطير على ارتفاع منخفض جدا ، تبدو بيوت المدينة ومع ضوء النهار الواهن يلمح القلعاوى ظل الطائرة فوق الاسطح والطرقات . عند نقطة معينة فوق المبانى تبدو على شفتيه نفس الابتسامة الموجزة الغامضة والتى قال البعض انها نتيجة تفجر ذكريات معينة ، بينما أكد آخرون انها ثمرة خواطر عابرة ربما تضمنت مرحا ، وفى الشهور الأولى من زواجه حارت السيدة ماجدة فى تفسيرها وسألته كثيرا عما يفكر فيه ، عندئذ تختفى تلك الابتسامة الدقيقة الموجزة ، واعتادتها امرأته كأحد ملامحه .

* منتصف ليلة الثامن عشر من اكتوبر يقف أمام (س) بمركز العمليات

القلعاوى : هل يمكننى ان أوضح

(س) الموقف كما أرى واضح . .

القلعاوى : لقد قلت ملاحظاتى ، وبرغم هذا سأقوم بها . . لم تسمع بقية الحوار تماما كما أن المقاتل (د) الذى رأى القلعاوى بعد خروجه مباشرة يؤكد أن الشعور الذى خرج به الى تلك العملية مخالف تماما لكافة العمليات التى قادها ، قال (د) أنه لا يستطيع وصفا لحالته بالضبط . لكنها تستدعى اليه حادثا بعيدامن طفولته ، إذ حدث أن خرجت أسرته للسفر الى بلدتهم وعند القطار راح شقيقه الاصفر محمد يشد ثوب والدته إلى الوراء كأنه يود الرجوع إلى البيت ، بمجرد وصولهم أصيب بمرض لا يدرى (د) حتى الآن طبيعته أو أسمه ، ما يذكره أن شيخا اسمه (أبو درية) جاء مرات ليضع على جبهة شقيقه أحجبة مثلثة صغيرة ويقرأ الكثير من التعاويذ ، آخر صورة يذكرها لشقيقه رؤ يته ملفوفا فى أغطية وثياب تخفى جسده ، لا يبدو إلا رأسه وعيناه فيهما استسلام عجيب . سنوات طويلة تلت هذه الزيارة وأمه تقول : شعر محمد بما ينتظره ، عرف أنه لن يعود ، لو أننا رجعنا معه لعاش وبلغ الآن كذا من السنين . يثق (د) أن

القلعـاوى استشهد نتيجـة عملية التـاسع عشـر من اكتوبـر . . عندمـا استدعتهم السيدة « ماجدة » لتعرف من كل مقاتل فى المجموعة السابعة تفـاصيل السـاعات واللحـظات الأخيرة لـزوجها ونـوعية المشـاعر التى ارتسمت على وجهه كاد (د) أن يقول لها ما يثق فيه ، ان القلعاوى خرج وهو يعرف بل موقن بما سيحدث أطرق (د) فكر فى صعود القلعاوى تبة الرمل . لو تأخر خطوة واحدة لا خطأته الشظية ، لو خطا الى الأمام لما نفذت اليه ، لو تبادل مكانه فى المقدمة مع مقاتل آخر . لو تأخر التوقيت دقائق لو اهتزت فوهة المدفع لحظة خـروج الدانـة ، لكن كما قـال أحد الرجال أن هذه الشظية انتظرت اللحظة المناسبة بعد أربع وتسعين عملية عبور واستطلاع وقتال . .

* قرب الاسماعيلية . يلمح رجلا عجوزا يسنـد ذقنه الى عصـاه وامرأة شابة وطفلة ولحافا مطبقا وطشتا به موقد غازى . قال عبد المؤمن السائق . . لاجئون من القرى التى احتلها اليهـود . . قرض القلعـاوى أظافره .

* قبل خروجهم من القاهرة فى نهايـة طريق صـلاح سالم ، فـوق مساحة خضراء شبان يرتدون ثيابا كاكية . حولهم حقائب جلدية بعضها مفتوح ومقعد مما يستخدم فى الجلوس بالشرفات يدقون أوتادا خشبية تمهيدا لشد خيمة لم تفرد بعد ، هل رأى بينهم فتاة ترتدى الزى الأصفر ، فكر فى

ليلى ، عندما تبلغ الرابعة عشرة . . الخامسة عشرة . سيدعها تسافر بمفردها تكتشف مصر .

* قبل تبة الرمل ، يتقدم المقاتل (ك) يقف بجوار القلعاوى .

ـ دعنى اتقدم إلى أعلى التبة .

يلتفت إليه عارى الرأس لم يرتد خوذته طوال عمره أبدا فى كافة العمليات .

ـ أرجع . .

ـ سأتقدم أنا . . الموقف غير واضح . .

يقبض القلعاوى ما سورة الرشاش .

ـ اسمع . . أنا لم أصدر إليك طلبا فى صيغة الأمر أبدا . . الآن أطلب منك أن تلتزم مكانك . . نفذ الأمر . .

على مهل راح يتسلق التبة الرملية تتناثر ذرات رفيعة حول كعبية . .

* * *

ورقة من ملف الخدمة . . تحرر فى ١٩٧٣/٧/٤ البيان التالى بالاصابات الناتجة عن القتال .

آثار طلق نارى بالساق اليمنى . التاريخ ١٩٦٥/١/٥ اليمن

شظايا بالرأس ، التاريخ ١٩٦٧/٦/٧ ، رمانة .

شظايا بالساق التاريخ ١٩٦٩/٤/١٩ ، الطور .

* * *

ذكر السيدة زوجته وبعض أحوالها :

حدث فى ليلة الجمعة ١٩ أكتوبر أن نزلت السيدة ماجدة الهوارى . عبرت فناء البيت تنظر إلى الأمام . خطواتها منتظمة ، وقفت لحظة أمام مدخل البيت ورأت فتاة تحمل سلة يطل منها مقدمة أربعة أرغفة فينو وتمسك علبة زيت خضراء اللون عليها اسم أسد ، ورأت شابا يمسك يد صديقته ، ومرقت سيارة بداخلها خمسة أشخاص يرتدون ثيابا بلدية ، وعلى مهل خطت قطة سوداء فوق جسدها بقعة بيضاء كبيرة . ولاحظت أن عمود النور المواجه للبيت به فتحة قرب قاعدته السفلى تطل منها أسلاك كهربائية عارية . وفكرت أنه من الممكن أن تصعق هذه الأسلاك طفلا أو رجلا أوسيدة عمياء ، وعندما توقف التاكسى فتحت الباب بدون أن تنحنى ولو رآها أحد رجال المجموعة السابعة أو أحد زملاء القلعاوى فى الكلية الحربية ، أو الذين عملوا معه فى الصاعقة ، أو أحد الذين حاربوا معه فى بورسعيد واليمن وسيناء . لرأى نفس الطريقة التى يقدم بها

القلعاوى على ركوب سيارة . نظر السائق فى المرآة المغلقة فوقه . سأل إلى أين !! « العباسية » ارتفع صوت المحرك . ولاحظت أضواء الشوارع الخافتة ، وفوق الأرصفة وخلف النوافذ المغلقة وفى الشرفات المهجورة يطل عبد الله القلعاوى هادئا على وجهه ابتسامته الآمنة كعطر الورد تصغى إلى مذاق حسه الهادئ . « لا تبكى » . حازم . باتر كطلقة لا يريدها أن تبكى . وهى لم تبك بل فكرت فى لحظة خروج الألفاظ من شفتيها وهى تنهى الخبر إلى والدتها . تسألها عما يجب عمله مع الأولاد . فكرت ، أنهما بدا يوم أربعاء ، واليوم الجمعة ، البداية لحظة زيارتها لاخته منذ أربعة عشر عاما ، دخوله الهادئ إلى شرايينها ، هدوء عينيه الذى لم يتغير عند خروجه إلى عملية أو عودته من دورية . وعندما قبلها بعد لحظات من انجابها ليلى . الرؤ ية الأولى حوت كل شىء ، ضمت كل التفاصيل التى تكشفت واحدة أثر الأخرى على امتداد أربع عشرة سنة ليلى عمر العلاقة . ليلى الآن صديقتها وسندها وليست ابنتها فقط وهى من ستتطلع إلى عينيها إذا ما طرق باب البيت غريب ، وهى من سترى فى وقفتها وقفة عبد الله . تماما كوقوفه فى الشرفة . أو أمام مدخل البيت ينتظر السيارة . ستحتضنها تدعوها إلى جوارها وتقول لها ، إن أباك سيتأخر ، لو طلبت ليلى وسامح رؤ ية التليفزيون أو سماع الراديو أو إحدى اسطوانات عبد الله . فلن تمانع . هكذا يريد . توشك أن تلفظ اسمه الآن ، توشك أن تشم رائحته

أثناء عودته طويل اللحية ، يطلب قربة ماء ساخنة . فى بدايات الليل بعد أن يغادرها تصغى إلى صوت هيلوكبتر يعبر الليل والصمت والعمر . ترقب طمأنينة سامح وليلى . تخرج إلى الشرفة حتى فى أيام الشتاء ونزول المطر . تتدثر بالمعطف . ترقب اكتمال الليل ثم شحوبه وبدايات الفجر . تكاد تتابع العملية ، بعد نصف ساعة سيخطو هناك . هذه هى المرة الخمسون . الواحدة والخمسون .

لم يحك لها تفاصيلا . وقع خطواته هناك يتردد عبر ضلوعها الأربعة والعشرين . لا تذكر أنه قال لها « أحبك » . قبل زواجهما يستمر صمتهما لحظات . فجأة يقبض يدها كأنه جناح طائر غريب . تأمن وتستكين قال إن أيديهما حملت عبء التعبير عن عواطفهما زمنا ، نظرته إليها حلوة ، هادئة . فياضة لا ترجفها دانات . لا تجرحها شظايا . بعد عودته يتمدد بكامل ثيابه الكاكية . تستعيده من جديد . رجوعه كالولادة يبدو فرحا كالطفل . خلق شيئا جديدا . بعد رجوعه موفقا تدركها نفس هزة البداية قالت له أنها خافت الا يستمر الوهج بعد زواجهما . أن يدركهما ملل . ابتسم . لا يعيش الملل والخطر . قال أنه أكثر جرأة على مواجهة الخطر بعد حياتهما تحت سقف واحد . تلملم أصابعه تستكين يده الليلية الضخمة . مع عودته تعيش سعادة دافقة . كان المفروض أن تحرم منه أن يخرج لا ليعود يرجع أو لا يرجع ، السيدة ماجدة الهوارى الآن لا تبكى . تثق

أنه يرقبهـا من مكان خفى ، يـراها ، يـدرك رجفات قلبهـا ، عليم بما سيحدث لها غدا . يرى عمرها الآتى ، الآن لن تبكى وسبل الأتصال بينهما مقـطوعة ، خـلال الأيام المقبلة ستعبـر هذا الـطريق مـرات . فى نفس الاتجاه . فى الاتجاه المقابل لن يصحبها . لن تجلس إلى جواره بينما تطل ليلى وسامح من النافذتين الخلفيتين ، ستعبره ليلى يتيمة عندما تصير طالبة . هل ستمر الهيلوكبتر فى نفس الميعاد ؟ لن تنتظر ، تخشى لحظة تستيقظ فيها يملؤها يقين أنه يقف فى الصالة . إنه أعد الشاى بنفسه . إذ تجلس إليه قد يبدى ملاحظة حول آخر لحظة ، حول بعض رجاله . أنهم ينتشرون حوله ولكنه فى الظلام يبدو كرقائق المعدن المثبتة إلى أجهزة اليكترونية معقـدة يتلقى ما يشعرون به أما هو فلا يبوح بآلامه قط . لا يزعج محبيه . عندما أصيب بشظايا فى ساقه قرب مطار الطور ، مشى فوق الصخـور ، عبر الخليج ضغط ألمه حتى وصل إلى معسكر الاقلاع . لم يقل آهة واحدة وضع يده بين أسنانه وراح بعضها ، يقتل الألم بالألم . أيام خطوبتهما بين الحين والحين يهاجمه صداع غريب تعقبه فترة من الوقت تغيم الرؤية دائما عن عينيه حتى يصل إلى لحظة لا يرى ما يحيطة إلا بصعوبة عـرفت فيها بعـد ضرورة اغلاق العينين عندئذ . لكنه ظل مفتوح الحدقتين دائـما . ينفى علامات الضيق من ملامحه . يستدير ليتناول قرصا أصفر . سألته . قال إنه صداع لكن أى صداع ؟ تتراجع البيوت بسرعة ، عنـدما يتـأخر أو

يقضى ليلته فى المقر تتصل به حوالى الثالثة صباحا . ربما تبادلا كلمة أو كلمتين أما الآن لو أدارت الرقم فى نفس الميعاد الليلى المتأخر ، من يرد . من يجاوبها من . ؟ ستلتقى بكل من رفاقه تستجوبهم بدقة . تعيش من خلالهم لحظاته الأخيرة . آهته الأخيرة هل لفظها أم كتمها ؟ عندما تسألها أمها ستقول كما قال عبد المؤمن « مات ميتة نتمناها كلنا ، جاءت الشظية فى موضع القلب تماما » ، عندما تستفسر أمها عن الجثمان ستقول « رجالته جابوه » إذا نظرت أمها إلى عينيها الجافتين ، إلى نظراتها الحادة المستقيمة ستقول إن عبد الله علم كل من يعمل معه أنه لا حدود لقدرة الإنسان لما يمكن أن يقدمه ، أن يحتمله . حتى الآلام الوعرة يمكن قهرها . شظايا فى الساق كانت أو فى صميم القلب لهذا لن تبكى قط . لن تدمع أبدا .

هامش أخير :

أجمع عدد كبير من مقاتلى المجموعة على أن القلعاوى يخرج فى كل عملية وهو يعلم احتمالات موته . لكنه فى العملية الأخيرة بدا موقنا من النتيجة . من الموت . هكذا تقول كل الدلائل . لهذا تم التوجه بسؤال الى (ك . ى) رئيس العمليات وأقرب الخلق إليه مع احترام رغبته فى عدم الادلاء بأية تفاصيل . فقط يجيب بالنفى فيها أو الايجاب « كيف بدا القلعاوى تلك اللحظات التى واجه فيها (ك . ى) وطلب منه بصيغة الأمر لأول مرة عملا معا ان يلزم مكانه ولكن (ك . ى) عندما وجه إليه

السؤال بدا حزينا كأنه تقدم فى السن أعواما عن اللقاء السابق الذى تم معه منذ أسبوعين . لم يتكلم كثيرا لم يبد ساخطا . لكنه رفض الحديث رفضا باتا . .

١٩٧٤

السبّوبة

حدث ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ ، أن طارت شظية من دانة هاون ٨١ مللى اسرائيلية الصنع ، حد من اندافعها فى الفراغ رقبة عويس السويسى فذبحته ، دفن على عجل بمقابر اعدت بسرعة غرب المدينة ، لم توضع فوق قبرة لوحة تحمل اسمه ، لم ترص حوله أحجار بشكل منتظم ، لم تغرس عصاه تحمل خوذة . لم يرتد عويس خوذة أبدا إذإنه لم يجند فى صفوف الجيش ، لم يتسلم أى مهمات بعد انضمامه الى المقاومة اثناء الحصار ، حدث أن ارتدى خوذة مرة واحدة عندما جلس صباح يوم غائم الى جندى صعيدى بمقهى أبى رواش التى تهدم جزء كبير منها ، لم ير الجندى من قبل ، فى تلك الأوقات يحدث كثيرا أن يجىء انسان ويجلس بالمقهى . لا يطلب مشروبا ، لايسأله خليل الجرسون ذلك لأن الأقوات عزت جدا ، كوب الشاى نادر لقلة المياه وشدة الحاجة إليها ، رغيف العيش يأكله أكثر من شخص . خمن عويس أن الجندى من الصعيد ، يتحدث دائما الى من يلفت نظره ، إلى من يجاوره فوق الرصيف ، أو فى رقدة أمام مسجد أو فناء بيت قديم ، يبدأ بسؤال لا يتغير ، من أى بلدة أنت ؟

حول عيني الجندى ما يشبه رذاذ جير مطفأ ، قال انه من البدارى بدا غير راغب فى الكلام إذ إنه عاد إلى اطراقته وكأن حوارا لم يتم ، أبدى عويس حماسا وكأنه عاش عمره ينتظر أى قادم من البدارى .

« البدارى ؟ أجدع ناس » ، أحنى الجندى رأسه شاكرا ، وجه نظراته إلى بيت قديم متهدم على الناحية الأخرى من الطريق . رصد عويس نظراته ، صاح موضحا أن هذا البيت دمر أثناء حرب الاستنزاف فى غارة طيران ، عام ١٩٧٠ ، استشهد فيه موظف بهيئة قناة السويس اسمه رشاد أفندى ، لا يدرى متى احيل إلى المعاش فمنذ أن وعى وهو يرى رشاد أفندى محالا الى المعاش ، يجيىء يوميا الى المقهى ، ويجلس فوق الكرسى الذى يستريح عليه الجندى ، يشرب ثلاثة فناجين قهوة ، يسأل عم خليل ، هل وصلت رسائل ، حوالى الثانية عشرة يقوم متمهلا ، لا يخرج من بيته الا صباح اليوم التالى ، كل يوم أربعاء يطلى زجاج نوافذه ، باللون الأزرق ، مهما اشتد القصف لا ينزل ، لا يغادر بيته الا فى ميعاده اليومى إلى المقهى ، آخر يوم جاء فيه اقترب منه عويس طارقا صندوق ، زجاجات الأصباغ وعلب الورنيش بالفرشاة ، هز رأسه نفيا ، قام ، تابعه عويس ، بعد دخوله البيت بدقائق جاء الطيران ، وكأن الطيار اسقط قنبله بحبل ، أصابت البيت تماما ، أو مسح الحذاء ، لو تمهل فى شرب القهوة ، لكنها الأعمار ، لكم بدا خلال حياته مستعصيا على الحديث ، حتى فى لحظات

قصف الطيران ، تتطاير شظايا اصوات قذائف المدفعية المضادة ، لم يتحرك قيل فى السويس انه عند حدوث قصف يمكن مشاهدة سويسيين لا يفارقان مكانهما ابدا ، لا ينزلان الى خندق ، لا يحتميان وراء ساتر ، انهما رشاد افندى وعويس ، عويس يرى فى الشوارع طوال الليل والنهار ، لا يدرى أحد ، هل معه بطاقة أم تهجير أم لا ؟ هل لديه بطاقة شخصية ؟ هل لدية شهادة ميلاد ؟ هل تلقى تعليما ؟ من سمح له بالبقاء بعد تهجير الأهالى ، يقول عويس انه عند تصنيف الأهالى تمهيدا لترحيلهم لم يمتلك أى مستند يتقدم به ، لم يذكر محافظة يرغب الذهاب اليها ، أو وظيفة ينقل اليها ، أو مهنة ليعان على الاستمرار بها ، يضحك عويس ، لو اصروا على ترحيله لوجد ألف وسيله يعود بها الى السويس ، يقول انه سعى كثيرا للالتحاق بعدد من الوظائف ، قدم الكثير من الخدمات لموظف منقول الى السويس على امل الحاقه فراشا بمديرية الصحة ، مسح حذاء الموظف مجانا ، عندما باع الليمون اختار أكثر الثمر طراوة وامتلاء بالعصير ، نظف شقة الموظف يوميا ، غسل غياراته الداخلية .

رتب حقائبه عند السفر ، فجأة ابتعد تماما عن الأفندى ، صار يراه ماشيا على الرصيف فيعبر إلى الرصيف المقابل ، لم يعرف إنسان سر هذه الجفوة لم يهتم أحد بمناقشة الأمر لأن علاقات عويس وتصرفاته وكافة ما يقوم به لا يهم أحدا ، انه يظهر فجأة فى ليالى السهر ، يصفق ،

يرقص ، يرفع الكرسى بأسنانه ، يقلد النشال والمقعد وضابط الأمن والكمسارى والقبطان ، آخر السهر لا يسأله أحد كيف سيمضى وإلى أين سيذهب ؟ لم يصحب إنسانا إلى البيت .

لم يمتلك مفتاحا أبدا ، لم يحمل عنوانا ، كثيرا ما رقص وأدهش ، ويحدث أن يقوم الحاضرون لتناول عشائهم ولا يدعونه فيبقى مكانه لا يطلب ولا يسأل مع أن الجوع يقلق نومه المنتظر ، لم يشك الموظف الشاب لأى انسان ، لكنه شكا الى هذا الجندى من أولاد الحرام الذين لا يعرفون مقادير الناس ، قال ان الموظف عرض عليه الذهاب ليعمل خادما بأحدى الشقق بالقاهرة ، وعندما قال أنه لا يستطيع مفارقة السويس ، سخر منه وقال ، من يسمعك يظنك تمتلك العمارات والدكاكين ، قال ان لسانه لم يخاطب لسان الموظف بعد أن طلب منه البحث عن . . عن امرأة يقضى معها وقتا ، أكد عويس أنه لم يبح لانسان بحقيقة ما جرى ، تحدث الجندى عن البدارى ، أبدى عويس تجاوبا ، كأنه قضى عمره فى تلك البلدة البعيدة شرق النيل ، عدل الجندى وضع بندقيته سريعة الطلقات ، قال انه لا يخشى على أمه من الظروف ، انها قادرة على مجادلة الرجال والخروج الى السوق لتبيع المش القديم الذى تتقن عمله ، كما انه رفع المبلغ الذى تدخره إلى تسعة عشر جنيها خلال الأجازة

الأخيرة قبل الحرب ، يخاف عليها من القلق ، لم تصلها أى معلومات منه ، لم يصلها أنسان من طرفه ، يعرف حرقة الانتظار ، لا يدرى متى سينتهى الحصار ، تحدث عن نشاط أمه عند عودته ، حركتها من الفرن إلى الكانون ، جلسة أول الليل تحت سقف السماء التى تبدو من رحبة البيت ، قبل نومه تسأله ، هل يعوز حاجة ؟ قال عويس للجندى فى ذلك اليوم انه لا يطيق النوم تحت سقف بيت اعتاد النوم والنجوم فى عينيه ، لم يخرج من السويس أبدا ، لم ير مدنا غيرها ، بالتأكيد ولد فيها ، أين بالضبط ؟ لا يدرى ، رحلت عينا عويس إلى بعيد ، فجأة ضحك ، طلب من الجندى أن يعطيه الخوذة ليرتديها ، أحكم الحزام الجلدى حول ذقنه ، قال انها ثقيلة ، تساءل : هل تحمى من الشظايا ؟ قال الجندى ، لا شىء يحمى الانسان اذا حان أجله ، بعد لحظات قام الجندى ، افترقا على غير ميعاد ، عويس تحدث إلى الحمالين فى القطارات ، إلى العاملين على عربات النقل ، إلى أقارب الصعايدة المقيمين بالجناين ، جنود المطافىء المنقولين إلى المدينة ، بعد الحرب كثيرا ما أصغى إلى هؤلاء الجنود الذين رأوا السويس لأول مرة ، بعد لقائه بالجندى صاحب الخوذة ، حاول تتبع ملامحه فى المدينة المحاصرة ، لكن الوجوه اختلطت عليه ، يضيق عويس بالحصار ، الطرق على امتدادها مغلقة ، العربات داخل المدينة مهما اسرعت تبدو وكأنها تمضى فى حركة دائرية ، لأول مرة يأكل مع أشخاص

بعينهم ، أحمد الموظف بشركة البترول ، كفتة البمبوطى ، قناوى المصور ، الملازم الاسكندرانى قائد المجموعة ، لم يحدث فى حياة عويس أن أكل فى طبق معين ، لم يجلس الى مائدة أو طبلية بعينها ، أكل فوق الأرصفة المواجهة لمحطة أوتوبيس الأربعين ، المقاهى الصغيرة ، كورنيش المدينة ، على شاطىء بور توفيق عندما سمح له قبل الحرب ببيع البيبسى كولا للمصيفين أكل ثمرات الطماطم وقطع الجبن على منديل قديم بنى اللون طرز عليه حرف انجليزى تهرأت بعض الخيوط التى نسجته ، أعطاه له أحد قباطنة مراكب الصيد ، ذاق الفطائر عند ذهابه إلى المقابر أيام الأعياد ، لا أقارب له مدفونين هناك ، عادة يملأ منديله بكعكات وشطائر ثم يقرأ الفاتحة على أرواح بعض الراحلين ممن عرفهم بالمدينة ، بعضهم لم يبادله كلمة واحدة طيلة حياته كتوفيق بك الذى عمل مأمورا للسويس سنين طويلة وعرف عنه الطيبة وعدم الرغبة فى ايذاء ضعفاء الناس ، يزور أكثر من جلس اليهم وهو الشيخ المرزوقى ، عاش ومأواه أضرحة الأولياء والمساجد وقضى خلوة طويلة بإحدى مغارات جبل عتاقة ، آمن عويس بأنه طواف يذكر اسم الله فى البلاد ، قدم له خدماته حتى مات فى المدينة بعد مرض قصير رفض خلاله الذهاب إلى أى مستشفى والاستعانة بأى طبيب بعد الحصار وانضمام عويس الى المقاومة لحظ الملازم اختفاءه أثناء مواعيد الوجبات ، قال قناوى المصور أن عويس يأكل فى أى مكان ، أبدى

الملازم اعتراضا ، أن الطعام فى المدينة قليل ، وربما يخجل عويس من الجلوس معهم ويلقى صعوبة فى الحصول على قوته ، فى البداية ضاق عويس بجلوسه معهم ، خيل له أنهم ينظرون اليه خلسة ، انه يرتكب أخطاء لا تليق أو يأخذ أكثر من نصيبه ، فى ثالث أيام تناوله الغذاء معهم نزل الى صمت المدينة حيث أعياه الحصار وصدا الخريف والنواصى التى لا ينتظر ظهور أطفال يلعبون عندها أو نساء يختلن فى زينتهن ، توقف ، صاح بصوت عال ، « هذه الطريقة لن تنفع » ، انه يمضى الى نوبات حراسته بانتظام ، لم يخلف تدريبا واحدا ، يسهر معهم الليالى التى يجب أن ينامها ، يصغى الى أصوات الليل ، إلى طلقات الرصاص الغامضة ، يتأمل أنصهار السواد لثوان بتأثير الفليرز ، يتابع القطط المارقة ، مرنة ، تذوب فى السواد والخطر ، يحاول تفسير الأصوات الغامضة ، لكن أن يتناول الغذاء معهم فهذا يضايقه ، فى المساء قبل ذهابه إلى وابور المياه سأله الملازم ، لماذا لا ينام مع الجماعة ؟ صمت ، لم يفكر أبدا فى النوم معهم ، قال حزينا أنه ينام فى أى مكان بالسويس ، قال الملازم هذا خطر ، ثم يجب النوم فى مكان معروف ، ربما احتاجوا إليه ، ربما انهار فوقه أى بيت يأوى إليه عندئذ يتلاشى أثره ويضيع رجاه عويس أن ينام كيفما شاء ، المدينة كلها معروفة له كراحة يده بدا مستعدا للتنازل عن أى طلب آخر عدا ما يتعلق بنومه ، قال لقناوى أن ظهره لو تمدد فى مكان واحد ليلتين

متعاقبتين ينتابه ارق ويكبسه ضيق ، أرصفة المدينة أكلت من جسمه حتتا ، فى أعنف الاشتباكات شوهد متمددا فوق الأرصفة التى تقسم الطرقات وأمام أبواب العمارات ، حدث صيف عام ١٩٧٠ أن سقطت دانة على بعد أمتار منه ، بترت شظاياها شرفة بيت استظل بمدخله قال خليل الجرسون أن عويس محجب حدث أن آوى إلى شقه فى بيت يطل على الخليج نام بمفرده فى البيت كله ، جاء صاروخ كبير يمشى متمهلا فى الهواء كالأوتوبيس ، نفذ من سطح البيت ومن الطابق الثالث ، والثانى ، ثم استقر فى صالة الدور الأول سليما ومازال متمددا فى نفس مكانه كرجل ميت ، لم ينفجر ، ولم يتهدم البيت ، لكثرة ما رأوه نائما فى الطرقات لا يحذره أحد إذا عوت صفارات الانذار ، ربما لعدم اهتمام إنسان به ، إذا احتاجه أحد وسأل عنه ، يقولون من الصعب العثور عليه ، لا مكان له ، ولا أقارب يمكن سؤالهم عنه ، لكن لا تمضى ثوان ويظهر ، يرى قادما من منحنى ، أو خارجا من بيت مهجور متهدم ، يظهر متثائبا ، يهرش ظهره ، أو يضحك ، كأنه يستجيب مقدما لأى مداعبة ، لم ير عويس يمشى متمهلا ، ممسكا ذراع امرأة ، لم يلمح مؤتنسا بأنثى ، لم تروعنه مغامرات ، كثيرا ما جلس بعد قيامه بعمل ما ، يطلق تنهيدة ثم ضحكة ، ربما عقد ذراعيه وأطرق برأسه ، قال بعض العابثين إنه عاشق لأمرأة فلاحة كالقمر من الجناين ، فى كل مرة يصيح فيهم ، « اسكتوا » لم يهرول

مبتعدا ، فى ليلة ضيقوا عليه حتى أمسكه البعض محاولا تجريده من ثيابه اختفى اياما لا يعرف عددها ، غيابه لا يلفت النظر ، ذات صباح ظهر أمام مقهى أبى رواش ، بدا مجهدا ، شفتاه مقددتان ، زرقاوتان ، سأل عم خليل . .

« أمسح لك المقهى وآخذ قرشا » ؟

الشتاء مضاعف فى المدينة المهجورة ، البلاط يفح رطوبة تكاد ترى فى الفراغ ، انحنى ممسكا الخيشة ، أغرق الماء البارد قدميه المتشققتين كشبكة من حفر ، عمل عويس فى اشغال عديدة ، غسل الصحون فى مطاعم السويس الفقيرة ، عمل حمالا لأجولة الفول ، صناديق السمك ، هرس الطعمية ، عمل فى رصف الطريق الممتد حتى قرى الجناين لمدة أربعة أيام آخرها رفض المقاول أن يعطيه أجرا ، لم يكلفه أحد بالعمل ، ولم يدرج اسمه فى الكشوف . لم يناقش ، جاء فى نفس اليوم إلى صاحب طلمبة بنزين يدوية :

« هل أدير لك الطلمبة اليوم مقابل رغيف وباذنجان مقلى » ؟؟

لا يدرى أحد أين يضع صندوق مسح الأحذية ، يظهر ممسكا به أحيانا ، يمسح لزبون أو أثنين يختفى ليظهر ممسكا حزم فجل وجرجير ، أو قفص طماطم ، بعد إحكام الحصار وانقطاع شرايين الطرق وارتداد اليهود

عن السويس بدا هائجا ، يمشى مهددا الفراغ يعلن لكل من يقابله انه سينفذ بطريقة ما من هذا الحصار . دخل أحد المخابىء القريبة من مبنى المحافظة ، صاح فى المتواجدين داخله ، هل يصدق أحدكم أن السويس محاصرة ؟ قال له الحاج حسن السودانى موزع الصحف ، لماذا تبدو هائجا وأنت لم تخرج من السويس أبدا ولن تغادرها ، تعال وتطوع فى المقاومة ، رأيتك تنقل صناديق الذخيرة عندما هاجموا البلد ، لا تنقصك الشجاعة ، تعال بدلا من طوافك كالنحلة ، بقت شفتاه مفتوحتان لحظات ، تذكر يوم أن حمل صناديق لم يتخيل طوال عمره انه سيحمل مثلها لثقلها ، أثناء جريه تحت مبنى المستشفى أطلت بعض الممرضات ، زعقن ، قال عم خليل لعويس انهن يستنجدن به مع أن عددا كبيرا من الأهالى والجنود راح يعدو فى اتجاهات متفرقة ، اسرع الخطى مرددا ، « لن يصلوا أبدا اليهن » ، انتظم عويس فى أحدى مجموعات المقاومة ، فوجئوا به يجيد أطلاق النار ، فك البندقية نصف الآلية أمامهم ، نظف الكلاشنكوف ، فكه وقام بتركيبه من جديد ، قال أنه اتقن هذا من صداقته لعديد من الجنود ، أبدى صبرا وجلدا ، فى الليالى الباردة يقف مرتديا الأفرول الصيفى الذى ظهر به منذ انضمامه الى المقاومة ، اعتاد الناس رؤ يته فى ملابس الآخرين ، جاكت كاروه ، صديرى بلدى ، قميص أفرنجى ، فى شتاء أحد السنين ظهر بمعطف ثقيل طويل ، وقيل أنه عند نومه لا يلف جسمه به ، أنما

يطبقه ويضعه تحت رأسه ، لم يتردد عند قيامه بأى مهمة ، عندما كلف باستطلاع موقع قريب للعدو قرب الهاويس ، خاض فى الطين عاريا ، قضى الليلة فى المجرى الضحل ، عاد يروى ما رآى ، ما سمع ، والملازم يدون ، يكتب ، فى هذا اليوم سأله الملازم عن عمره قال عويس أنه لا يدرى ، تطلع الى وجه الملازم أبن العشرينات ، بعد لحظة قال حضرتك من أى بلد ؟ ، فى تلك اللحظة مر قناوى المصور ، رآهما يجلسان أمام المقر ، الملازم يتحدث وعويس يصغى ، لم يعرف ما يدور بينهما ، حدث فى اليوم التالى الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٧٣ أن طلب الملازم استدعاء عويس فورا لدفعه ناحية مبانى شركة شل ، حار أفراد المجموعة ، أبدى الملازم ضيقا ، ألم يطلب منه البقاء معهم فتوسطوا له حتى يدعه على راحته خرج قناوى متضايقا بعد أن وعد بالبحث عنه ، عند الناصية رآه قادما ، لا يتحرك فى فراغ الطريق غيره ، نفس الانحناءة التى توحى لمن يراه وكأنه على وشك الجرى .

« عويس » .

دهشة وجهه تمنحه براءة طفل ممزوجة بتعب .

« الملازم يطلبك فورا . . » .

« الآن ؟ » .

« نعم . . » .

« لكننى ذاهب الى الجناين . . » .

هنا علا صوت الملازم الذى لحق بقناوى بعد خروجه . .

« هل جننت . . الجناين فيها عدو . . » .

ردد النظر حائرا بين قناوى والملازم ، فى تلك اللحظة برق شىء ما فى ذهن الملازم ، أدرك ما جعله يتحدث الى عويس طويلا ليلة أمس عن أخوته ، وأبيه ، وأمه ، والبيت ، وسريره الذى لا يمس طالما بعد عن البيت ، وخروجه المسائى أيام الاجازة يجلس مع بعض أصحابه فى مواجهة البحر صيفا أو شتاء ، حدثه عن أصحابه ، وأوشك أن يحدثه عن حبيبته وعما يتبادلانه من أشواق فى حدائق المنتزه ، فى تلك اللحظة رأى فيه أكثر الناس الذين قابلهم قدرة على الاصغاء ، وبعث الأمان ، وأحاسيس أخرى لم يدرك طبيعتها بالضبط ، لمح أيضا آثار العمر فى الضوء الغروبى الشاحب والصمت المخيم كأنه التمهيد لضجيج آت لن ينته ، تساءل . .

« ما الحكاية ؟ » .

قال عويس إن سبوبة لن تعوض فى الطريق ، سيأتيه أحد الفلاحين بقفص طماطم وربطة فجل ، سيعطى المجموعة جزءاً ويبيع ما يتبقى ،

قال إنها سبوبة لن تتاح لأحد ، والخضار قليل جدا .

أرجأ الملازم عدة أسئلة حول كيفية ذهابه ، كيف سيتلقى بهذا الفلاح ؟ كيف تم اتصالها ؟ يبدو عويس سهلا ، بسيطا ، قادرا على اجتياز أصعب الأمور ، نظر إلى وقفته ، إلى انضغاطة كتفيه ، بهما هدة عمر بأكمله وتعب ، إلى رقة جلد الوجه المتعرض دائما لتقلب الهواء وتمدد الفراغ وانكماشه ، إلى تجعيدات حول العينين ، لسبب ما تذكر والده العجوز لحظة عودته من المدرسة ، يبدو أمر ما يجعل عويس قريبا غير ذلك الشعور المصاحب لسلوك الأهالى خلال الجهار والذى جعلهم يتقاربون ، أكثر ، ، ينام الأصدقاء فى أى بيت مفتوح ربما لا يعرفون صاحبه .

« نحن نحتاج إليك يا عويس . . » .

« لكن السبوبة يا حضرة الملازم . . » .

« اختر اذن بين السبوبة . . أو الوطن . . » .

تصطدم قطعة معدنية غير مرئية بحاجز ما ، ينادى شخص فى مكان بعيد ، كالدوامة فى الأعماق أحدث الصمت صدى فى الفراغ ، يغرق الظل مداخل البيوت المحيطة ، النوافذ الخشبية المتربة ، لحظة من النهار الراحل تبعث صورا وروائح وأصواتا بعيدة نأت طويلا عن الذاكرة ، ينقل قناوى ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، يرفع عويس وجهه إنه عجوز ،

يهز رأسه هزتين موجزتين ، سريعتين ، صامتتين . .

« طيب يا سعادة الملازم . . اخترت الوطن . . » .

أول مارس ١٩٧٦

مجهود حربى

تاريخ عام

عرف أهالى حى الأربعين وحى زرب ، خضر أبو عطية بائعا للشاى ، يقف أمام النصبة الخشبية أو يتحرك بين الدكاكاكين والورش حاملا صينية كبيرة عليها الأكواب والفناجين ، بدأ عمله ومعه براد شاى أزرق وموقد ماركة بريموس ، ودستة أكواب زجاجية ، بعد زواجه من الست شمعة تمكن بمساعدة بعض الصالحين ، منهم الشيخ زكريا تاجر الخيش القديم الذى عطف على خضر لوجه الله اذ لم ينقطع عن رؤ يته فجر

كل يوم فى مسجد سيدى الغريب أيام الشتاء وأيام الصيف ، عندما أتم بكر الابن الوحيد لخضر الرابعة أتم سعدون النجار عمل نصبة من الخشب ، مستطيلة ، الجزء الأسفل منها بضلفتين ، يضع داخله الشاى والسكر والأصناف الأخرى التى بدأ فى إعدادها ، الكاكاو ، القرفة ، أما الجزء الأعلى فمبطن بالصفيح والقصدير الذى يبعد لهب الموقد عن الجسم الخشبى ، يتسع لثلاثة مواقد ، اثنان من الحجم الكبير والثالث صغير يعمل بالكحول لاعداد فناجين القهوة ، أعلى امتدت ثلاثة رفوف ، اثنان عليهما اكواب زجاجية مضلعة الحواف ، والثالث عليه فناجين قهوة ، اشتهر شاى عم خضر فى حى الاربعين ، حرص على تناوله اصحاب الدكاكين الصغيرة ، مطاعم الفول والطعمية والسمك المشوى ، ثم وقع حدث هام عندما قرر الحاج الدمياطى صاحب وكالة حبال السفن شرب الشاى من خضر ، بدلا من مقهى القابوطى ، قيل فى سبب ذلك انه عندما شرب كوب الشاى صباح ذلك اليوم وجده مغليا ، عندئذ اقترح عليه وكيل اعماله تجربة شاى خضر الطازج دائما ، الخالى من التفل ، ابدى الحاج دهشة لوجود مثل ذلك الاخلاص فى هذا الزمن الردىء الذى لا يعرف الانسان كيف يشرب كوبا من الشاى فيه ، ادى هذا الى تحول جميع العاملين بالورشةعن مقهى القابوطى القى هذا عبئا على خضر ، الوكالة تستوعب شاى مقهى بأكمله حاول القابوطى مضايقة خضر ، لكن

بعض الأهالى واجهه بحزم ، قالوا له ان الأرزاق من عند الله ، اشترى خضر اكوابا جديدة ، كما اتقن تحويجة بن افضى إليه بسرها رجل مغربى وتقضى بإضافة حبهان وقرنفل وجوزة الطيب بمقادير معينة مما حبب هواة القهوة كثيرا ، ازدادت ساعات عمله من السادسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، كما اتفق مع عبده النجار على صناعة دكة خشبيه تتسع لجلوس خمسة أشخاص ، حتى يستقبل زبائنه من سائقى عربات النقل ، والتاكسيات ، والعابرين ، يشربون الشاى الذى عرف به وتفوح منه رائحة ذرات نعناع جاف أخضر ينثره بمهارة فوق الشاى ، عندما أتم ابنه بكر السادسة نصحه بعض الجيران بتدريبة على العمل معه ، يساعده ، يوصل له الطلبات ، لكنه ذهب به إلى مدرسة الأربعين* الابتدائية تقدم بطلبين ، الأول يرجو فيه الحاق ابنه بالمرحلة الابتدائية لبلوغه السن القانونية ، والثانى كتبه بعد نصيحه من باشكاتب المدرسة إبراهيم أفندى ، ويطلب فيه اعفاء ابنه من رسوم القيد وقدرها جنيها ونصف جنيه ، ارفق شهادة تثبت عوزه ، ورجا الباشكاتب الا يشعر بكر بأى علاقة تشير الى تقديمه تلك الشهادة ، استجاب الرجل الطيب ، ونادى اسم بكر بصوت عال من كشف الطلبه الذين سددوا المصاريف ايقن خضر أن كل ما يجيئه من رزق نصيب ولده ، مكافأه له على حسن نيته وصبره على تعليم بكر ، خاصة أن دعواته أثمرت ، لم يعرف عن بكرهوايته للعب الكرة ، او

ركوب الدرجات ، أو الذهاب إلى السينما ، كتب اسمه فى لوحة الشرف مرات ، رضى عنه المدرسون ، أهداه الناظر قلما ومسطرة ، فى الليل يسهر ، أمام الطبلية منحنيا ، لا ينام الا بعد الحاح امه حتى يقوم مستريحا من النوم ، وعندما انهى بكر دراسته الاعدادية حوالى عام ١٩٥٩ ، تمكن خضر من دفع جنيه واربعين قرشا إلى أبي غزاله الكهربائى مقابل مد سلك الى داخل الغرفة يضىء مصباحا يذاكر عليه بكر بدلا من لمبه الغاز . استوثق خضر ان التيار الكهربائى غير مسروق من أحد ، أو من أسلاك الحكومة ، كما اتخذ اجراء اخر لتوفير ظروف افضل لبكر منها نومه الى جوار امرأته فوق الأرض ، ونوم بكر فوق السرير حاول ايضا تجنيب ولده ما تصوره انه حرج ، لم يتردد كثيرا على المدرسه ، حتى لا يتضايق بكر يوماً اذا ما تشاجر مع زملائه وقالوا له . . يا ابن القهوجى . . مع إن كلمة قهوجى تطلق عليه تجاوزا لعدم عمله بمقهى ، كما تخلى منذ سنوات عن حمله بامتلاك مقهى لارتفاع التكاليف .

حقائق لم يعرفها اقرب الناس

اثقل خضر هم دائم ، هو توفير مصروف البيت ، أشد ما كرهه مد اليد إلى الغير ، لكن الرعب يمتلكه إذ يتصور عودة بكر الى البيت بدون أن يجد باذنجانا مقليا أو طبقا من الفول أو بيضا ، تعامل خضر مع ثلاثة اشخاص السنى الخباز ، واباظه العجمى ، وعبد الهادى البقال ، كثيرا ما توقف ليتأمل المارة ، اعتاد معارفه صمته فلم يخمن أحد ما يداريه ، ينقبض قلبه إذ يرى البعض يحملون خضارا ولحما ، إذ تتجمع القروش فى يده يطلب من بناويطى الحلاق الانتباه إلى النصبة ، يهدىء نار المواقد ، يمسك طرف جلبابه ، يسرع إلى البيت ، حدث أن عرضت امرأته الاستدانه من الست عطيات لكنه آبى ، ربما تشاجرت فى أى لحظة عندئذتعايرها بصوت عال ، بماذا سيشعر بكر ، حرص أيضاً ألا يلجأ الى اللحم الحى ، ويشمل السكر والشاى أو المبالغ المخصصة لشرائهما .

من الحقائق المجهولة أن « خضر » لجأ يوما الى الشيخ زكريا طلب اعارته جلبابا صوفيا ليوم واحد ، دعته المدرسة لحضور مجلس الآباء ، لم

يفكر أبدا فى دعوة كهذه ، لا يمتلك جلبابا يصلح ، ذهابه الى المدرسة أقتصر على دفعه المصاريف ، يخشى لو أعطاها لبكر أن يخطفها أحد الأشرار ، لم يلتق الا بعلى افندى سكرتير المدرسة الذى يجيء بعد الظهر ، يجلسان فوق الدكة ، يقدم اليه الشاى مجانا ، يتبادلان الاخبار ، يتحدثان عن تعديلات تنوى مصلحة التنظيم اجراءها . عن أعادة رصف الطريق المؤدية الى الميناء ،هل سيتم ذلك قبل موسم الحج القادم ؟ يتحدثان عن الأجانب الكثيرين المقيمين بفندق بلير ، لم يعرف بكر بأمر هذه الزيارات ، أصغى الشيخ زكريا ، قال إن لديه قال أن جلبابا لم يرتديه الا مرة واحدة ، مد يده الى صديريته أخرج محفظته الجلدية المرصعة بفصوص الألومنيوم ، مد الى خضر جنيهين ، أنه يعلم ما ستنتهى اليه هذه الاجتماعات ، سيطلبون منه تبرعا للمدرسة ، قال انه سيسترد كل ما قدمه بعد أن يعمل بكر ، فكر خضر أن يميل ليقبل يد الرجل .

ان معظم الثياب التى ارتداها خضر تلقاها كهبات ، فى بيته الآن مقطف كبير يمتلىء بقمصان قديمة ، بنطلونات ، جلاليب كما يوجد ربطة ثياب عسكرية مربوطة بحزام جلدى عريض (قايش) . تخص جنديا نوبيا اسمه مرجان ، طلب منه أن يحفظها عنده يوم ١٩ فبراير ١٩٧٠ . خرج الى سيناء فى دورية ولم يرجع . اعتبر مفقودا حتى الآن .

ان حقائق عديدة بقيت مجهولة ، معظم مشاويره قطعها مشيا حتى يوفر ثمن التذكرة ، لم يُمارس الجنس حتى الزواج ولا بعد رحيل امرأته الأبدى ، لم يتطلع الى امرأة أخرى ، جاع يوما قبل زواجه وأثناء صعوده سقالات البناء المنصوبة حول عمارة جديدة حاملا صينية الشاى ، أوشك على السقوط لولا أنهم لحقوه ، أنواع الطعام التى أكلها لم تتعد أصنافا محدودة ، الفول ، الطعمية ، العدس ، الباذنجان المقلى والفلفل الرومى ، عندما يفرق نصيب امرأته وابنه من اللحم يأخذ لنفسه أقل القطع حجما ، السمينة أو ذات العرق المستعصية على المضغ ، لم يدفع قرشين ثمنا لزجاجة مياه غازية ، أحيانا ترى خلف أذنه سيجارة لكنه لم يدفع ثمن واحدة أبدا ، فى أحد الأيام البعيدة أعطاه مقاول صعيدى علبة كاملة ماركة « هوليود » . لم يفك غلافها السيلوفان ، انما باعها إلى عبد الهادى البقال بأقل من ثمنها الحقيقى بثلاثة قروش .

التهجير :

عندما طلب من خضر أن يملأ استمارات التهجير ، قال للموظف المختص إنه لم يعد له بلدة يمكنه اللجوء إليها ، إنه يعيش بمفرده فى غرفة واحدة ، لا يضر إنسانا ، لا يخاف عليه أحد ، بل يخدم الجنود الذين ينتقلون من موقع إلى آخر عبر المدينة ، يجدون عنده كوبا من الشاى

الساخن ، لو نزل الجندى ولم يجد من يقدم إليه كوب شاى سيغتم ويحزن لمنظر البيوت المهجورة والمقاهى المغلقة ، قال إن النصبة لا تحتل حيزا وطوال عمره لم يحرر له محضر شغل الطريق العام أو التسبب فى زحام ، هذا قبل اضطراب الأحوال ، عندما كانت السويس تشغى بالخلق ، لم يقل خضر للموظف إن ابنه طبيب بالقاهرة ، ويمكن أن يساعده فى الحصول على تصريح ، لم يقل أنه خصص ثلاثين كوبا من الشاى يقدمها الى الجنود ، لا يتقاضى ثمنها ، داعبه الجيران الباقون وأطلقوا عليها ، « مجهود حربى » ، فابتسم قائلا : « ما أنا حياتى كلها مجهود حربى ، جنود عديدون يفاجأون برفضه تقاضى مليما واحدا ، اعتاد جلوسهم حوله ، فى البداية لم يبادلهم احاديثاً طويلة كعادته ، انما يخدمهم بنشاط عجيب ، يقدم اليهم الصينية بيديه المهتزتين ، إذ يلحظ بعضهم ذلك يقومون ، يتناولون الأكواب قبل وصوله اليهم ، يبتسم اذ يصغى إلى مداعباتهم الشابة ، فى ذلك اليوم تحدث إلى بعضهم ، قال أنهم يريدون تهجيره ، بعد هذا العمر كله ، أن يفارق سيدى الغريب ، قال أحد الجنود انهم سيفتقدون شايه الطيب ، نظر إليه معاتبا ، كيف يفكر هذا الصعيدى الجدع فى مفارقته للسويس ؟ لا يستطيع تخيل نفسه مستيقظا فى مكان آخر ، لا يرى النصبة كل صباح ، يفرغ قوالب السكر وأكياس الشاى فى الأوانى ، صحيح أن أحبابا كثيرين هجروا ، فى لحظة خيل اليه أن مقصا

هائلا يقطع حياة السويس جزءا ، جزءا ، ويرميها إلى المجهول . أحباب آخرون رحلوا أثناء القصف ، رحم الله الشيخ زكريا الذى ذبح بشظية بعد حريق الزيتية بيومين ، بدأت لحظات صمته تطول ، صحيح أنه لم يتحدث كثيرا أثناء عمله ، لكن وجودهم لم يفارقه ، فى الدكاكين ، الوكالات ، الورش ، وقت العصارى وجلوس الزبائن فوق الدكة ، وجردل المياه الذى يرشه بحذر وبطء حول النصبة ، حركة الشارع ، إن معظم الدكاكين والوكالات مغلقة الآن ، أبواب المنازل مربوطة بسلاسل حديدية غليظة ، مع مضى الأيام اعتاد رواده الجدد بارهاقهم البادى ، وأحاديثهم المرتفعة ، وجلستهم المميزة إذ يطرقون ، يسندون ذقونهم الى راحات أياديهم ، يسرحون فى الفراغ ، بنادقهم ورشاشاتهم بين سيقانهم كأطفال صغار ، أعمارهم المتقاربة تزيد عن عمر بكر عاما أو تنقص عامين ، اذا رأى أحدهم قادما يقوم نشيطا ، يولى وجهه ناحية النصبة ، يدفع كباس الموقد ، يكشف غطاء البراد الأزرق ، يغسل الأكواب مع أنه سبق أن غسلها أكثر من مرة يتبادلون أحاديثهم الخاصة ، يشارك بالاستماع ، عندما يقدم إلى كل منهم كوب الشاى يبرز من سطحه عود نعناع أخضر ، يصغى إلى آهة ارتياح بعد الرشفة الأولى ، « الله يا عم خضر » ، عندئذ يدير وجهه الصامت إليهم ، يتأمل الوجوه التى تشبه بعض ملامحها ابنه بكر ، يرق قلبه ، عبر السنين لم يجلس ساعة كاملة إلى بكر ، يعود فى المساء

ليجده نائما ، ويقوم مبكرا فى الفجر فيمد الغطاء على جسد ابنه أو يعدل وضع الوسادة تحت رأسه ، يلفظ البسملة ، ينصرف اطمئن إلى تفوقه فى المدرسة ، وعناية المرحومة بولدها ، عندما انتقل للمدرسة بالقاهرة لم يسمع عنه خبرا يضايقه ، فى الأجازة لم يسمح له بالاقتراب من النصبة أو مساعدته ، لم يعرف شيئا عن أصحاب ابنه ، الأماكن التى يرتادها ، لم يجحده لكنه تمنى أن يريحه من هذه الوقفة التى انهكت عمره ، اقتطع ثلاثة جنيهات من مكافأة التفوق ، صار يرسلها شهريا مع سائق عربة نقل سويسى ، يقوم السائق باعطاء النقود إلى امرأته التى توصلهم الى أم بكر ، عندما عرف خضر بذلك أول شهر ، تمنى لو أرسل الى ابنه يطلب منه ألا يفعل ، لكنه منذ فترة يشعر بتعب ، الشاى غال والسكر ، دعا له طويلا فى مسجد سيدى الغريب ، لكنه بقى بعيدا بشكل ما عن ابنه بكر ، خلال فترات الدراسة فارغة أو ممتلئة ، لا يستطيع إغلاق النصبة يوما واحدا ، إنه فى حاجة لكل قرش يأتيه حتى يأتى بأحسن الطعام لبكر أثناء بقائه معهم ، حتى لو تفرغ له ، كيف سيمشيان معا ، لبكر أصحابه ، ورحلاته التى لا يعرف عنها شيئا ، لا يبغى مضايقته عصر أحد الأيام فوجىء بابنه يمر أمام النصبة ، تلاقت عيونهما ، رفع خضر يده بالتحية ، « تفضل يا بك » ، نظر إليه بكر بدهشة ، لم يعلق ، انقبض قلب خضر ، نفس ايقاع كلماته الذى يخاطب به الموظفين المحترمين ، بعد رحيل المرحومة

وافتتاح بكر لعيادته مضت أيام عديدة بدون أن يلتقيا ، أول كل شهر تصله حوالة من بكر، يستبدلها من مكتب بريد الأربعين ، يقول له الموظف « ربنا يخليه لك » ، تلك الجنيهات العشرة ما تبقى من بكر ، فى لحظات اقتنع بأن هذا طبيعى ، أن بكر أصبح طبيبا ، له زملاء محترمون وزميلات يرتدين المعاطف البيضاء ، ويعلقن السماعات الطبية ، كما أن شهرته واستقامته ذائعتان ، الناس تتوافد على عيادته بالدرب الأحمر جعل قيمة الكشف عشرة قروش فى وقت ارتفع فيه سعر كل شى ، ليس من المعقول أن يشغل نفسه بأمور أبيه العجوز ، ثم أنه يقوم بالواجب ، لم ينسه شهرا واحدا ، إن صحته تساعده على الوقوف أمام النصبة والحديث إلى هؤلاء الجنود ، تساءل كثيرا ، لماذا لم يتكلم يوما مع بكر كما يتحدث اليهم ؟ مرجان النوبى قبل اختفائه حدثه عن خطيبته وعن همومه فى جمع المهر ، وتخيله للبيت ، ونفقات العرس ، هل أسر إليه بكر بأشواقه تجاه فتاة أحبها ، هل حدثه عن زميلاته اللاتى زاملهن فى الجامعة ؟ رجب جندى المدفعية وصف له الطابق الثانى الذى شرع والده فى بنائه ، عندما ينصرف كل مرة يطلب من عم خضر أن يدعو له ، أن يرضى عنه ، عندما يبدأ قصف المدفعية المتبادل يرفع يديه طالبا من الله حماية رجب ، قصف المدفعية يعنى عنده رجب ، اذاأغارت الطائرات على المواقع خارج المدينة فهى تقصد رجب ، كثيرا ما يلتفت الى بعض زبائنه الذين يصمتون فجأة

عند بدء الانفجارات يومىء قائلا « مدفع رجب اشتغل » ، تقسو ملامحه اذ يصغى الى شكوى منصور عامل المطبعة والمجند فى سلاح المهندسين ، صاحب المطبعة رفض تقديم أى مساعدة إليه بعد تجنيده مع أنه خدمة سبع سنوات ، وعندما نزل أول أجازة رأى عاملا آخر مكانه ، أدركته دهشة ، يصف خضر الرجل بأنه حرامى ولن يبارك الله له فى ماله أو مطبعته ، يتحدث بصيغة الجمع « نحن نجاهد ومن يضرنا لن يسامحه الله أبداً » ، يبدو منصور وكأنه قطعة منه ، ما لحقه من ضرر حاق به أيضاً ، إنه يسأل محمود الساعاتى عن والدته قبل أن يقدم اليه الشاى ، يقول محمود إن الضغط يرتفع أحيانا ولكن السكر يتزايد ولا منفذ منه الا الرجيم وهذا يحتاج الى نقود ، طبيب المستشفى فى لا يراعى حاله عندما يقول لأمه . . . كلى ربع فرخة مسلوقة يوميا و . . . العين بصيرة واليد قصيرة ، يصمت قليلا ، يتساءل ، لماذا أصيبت أمه بالسكر وهو مرض يقولون إنه لا يصيب إلا الأغنياء ، قبل ابتعاد محمود يدخل ذراعه فى السير الجلدى الذى يشد البندقية الى كتفه يقول برجاء عظيم «.والنبى أدع لها فى سيدى الغريب يا عم خضر » ، فى أحد الأيام بدا ساهما ، انتقل خضر الى جواره ، أحاط كتفيه بذراعه ، وهذا لم يفعله أبدا مع بكر ، قال محمود إنه وجد أمه منهكة فى أجازته الأخيرة ، لكنها تماسكت ، نزلت السوق ، اشترت خضارا وطبخت له ، لم تشك صداعا أو وجعا ، فى الليل سهرت تغسل ثيابه ،

قال محمود إنه يجلس ساعة بأكملها إلى أمه ، لا ينطقان حرفا ، لكن كلا منهما يدرك تماماً أحوال الآخر ، ما يفكر فيه ، ما ينبغي قوله أو اخفاؤه ، قال ان الوقت لا يتسع لأطباء المستشفى ، قال محمود أنه يعرف طبيبا ابن حلال فى مصر ، يحب الفقير ، قال محمود معاتبا ، هل نسيت يا عم خضر ، أمى فى الاسكندرية وطبيبك فى مصر ؟ ، فى تلك الأيام بدأ خضر وكأنه يعيش المدينة لأول مرة ، هجرة جيران العمر ومجيىء هؤلاء الشباب بدل كل شيء ، خلال الفترات القصيرة التى قضوها معه ، ارتاح لأول مرة بعد عمر طويل من وقفته المستمرة أمام النصبة ، فى لقاءات سريعة عرف عنهم أكثر مما عرفه عن الأسطى سيد الحلاق الذى جاوره سنوات ، يمضى محمود أو حسين أو سعيد جندى المظلات ولا يدرى ، هل سيلتقى بهم مرة أخرى أو لا ؟ يبدون وكأنهم يحرصون على أن يتركوا لديه أكبر قدر من تفاصيل حياتهم وحاجاتهم الصغرى ، أثناء مرور بعضهم السريع بالسيارة يلقون اليه بخطابات يطلبون منه أن يرسلها من مكتب البريد ، جاءه مرجان يوما بأكثر من عشرين خطابا ، كل مظروف لصق عليه طابع البريد ، بدأ مرجان متعجلا ، وحدثه ستكلف بمهمة ربما غابوا فيها زمنا ، وزملاؤه لن يستطيعوا النزول فى أجازة أو المرور العابر بالمدينة ، رجا عم خضر أن يرسل هذه الخطابات فى نفس اليوم من مكتب البريد الرئيسى ، عد المظاريف ، أحضر جريدة قديمة لفهم بها ، مضى عبر حوارى زرب ،

الى شارع الشهداء ، عوت صفارات انذار الطيران ، لم يتوقف ، ترك النصبة مفتوحة ، فقط هدأ المواقد ، طلب من موظف البريد أن يحصى المظاريف ، انحنى برأسه ينظر عبر الشباك الضيق يحاول متابعة العد ، عندما خرج من المكتب ابتل قلبه برضى ، لم يهتم كثيرا بانفجار مكتوم بعيد ، ولم ينتظر انطلاق صفارة الأمان ، إذ إن السويس لم تعرفها فى تلك الأيام ؛ تدوى صفارات متقطعة فقط ، أما الأمان المتصل فلا محل له فى المدينة أو فى إيقاع حياتها ، أثناء اقترابه من النصبة حياة أربعة جنود وضابط شاب برتبة ملازم ، ابتسم ، قال تفضلوا . . . صاح أحدهم . . مجهود حربى ؟، قال خضر مشيرا بأصبعه الى عينيه . . « من دى . . ومن دى » ، لا يذكر انهم مروا به ، أو جلسوا عنده ، لكنه ائتنس بهم ، أضحكوه بمرحهم ، اعتذر اليهم عن عدم وجود نعناع وقال انه سيمضى إلى الجناين ليشترى نعناعا أخضر ، فى عصر اليوم مر به هريدى جندى البحرية الصعيدى ، لا يراه الا أثناء نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، ربما لابتعاد موقعه ، قدم إليه لفافة صغيرة ، وقال ان امه ارسلتها خصيصا الى خضر عندما حكى لها عنه ، صاح خضر عندما رأى هريدى منصرفا ، تفضل شاى . . ابتسم هريدى ، سيأتى إليه بعد ستة وعشرين يوما عند عودته الى بلدته اذا قسم له الأجل ، قاطعة خضر « بأذن الله » ، سيشرب كوبين ، إحدهما مجهود حربى ، والآخر على حسابه ، فى الليل يصغى

خضر الى السويس ، إلى الطلقات المتقطعة ، سنين طويلة قضاها أمام النصبة لم يجاور مخلوقا ، صحيح أن أصحاب الدكاكين أحبوه وأثنوا على شايه ، وتصدوا لمن حاول مضايقته ، لكنه لا يذكر أنه تبادل معهم الحديث يوما لمدة دقائق ، بل انه خلال السنين العشر الأخيرة وصل إلى معرفة كاملة بأمزجتهم وأحوالهم ، بجيئه صبى المعلم فسدق ، يعرف أن المطلوب شاى على ماء أبيض مغلى ، يصيح الأسطى سيد الحلاق ، لا يومىء حتى برأسه ، فنجان قهوة مضبوطة من البن المحوج ، أثناء توصيله الطلبات يزعق عليه هذا أو ذاك ، واحد شاى يا عم خضر ، واحد قهوة يا عم خضر ، جنزبيل يا عم خضر ، يعرف لمن يعد الشاى الخفيف ولمن يضيف قدرا من اللبن ، حتى كمية الجنزبيل بدأ يشتريها طبقا لحاجة زبائنه عنده أربعة يشربون الجنزبيل يوميا ، عرف عنه صمته ، سعيه الهادىء فى الطريق ، استجابته السريعة لما يطلب منه ، لم يحدث إلا نادرا أن قال له البعض « تأخرت يا خضر » ، لكنه لم يقف أمام دكان ، لم يجلس على مقعد فى الوكالة ، لم يتحاور ، لم يشك إليه أحدهم ، لم يصغ ، فى الطريق تصل الى أذنيه جملة عارضة يقولها أحد زبائنه يعرف أنه المقصود بها . . « هل ترى هذا . . انه يربى طبيبا . . » ، ربما اضطربت خطاه خجلا لكنه لا يتوقف ليعلق ، مع مرجان وكمال وسعيد ، معهم ضحك ، وتحدث ، وجلس على الدكة التى أعدها لراحة الناس ولم يقعد عليها يوما ، لأول مرة

تمتد أيد لتساعده فى عمل المشاريب ويتقبل هذا راضيا ، بل إنه ترك لهم « العدة » كلها يوما وجلس يتفرج عليهم ، عندئذ قدم له محمود الاسكندرانى كوبا من الشاى وقال ، أنت اليوم زبون وهذا الكوب مجهود حربى ، لم يفكر فى الاستعانة بشخص ما ، راودته الفكرة أثناء دراسة بكر الثانوية ، أن يستخدم صبيا فى توصيل الطلبات ويتفرغ للعمل أمام النصبة ، لكنه تساءل . . كم سأعطيه . . خمسة عشر قرشا أو ريالا ؟ بكر أولى به ، لأ حتمل قليلا ، إنه يرى كل شىء قضى بجواره سنوات لأول مرة ورواده الجدد حوله ، كيف سيمضى الوقت عليه فى الهجرة ؟ بعد عمر قضاه واقفا هل يتحول إلى قعيد يتقاضى اعانة تهجير ؟ يعود إلى صحته ، تكف يده عن اذابة السكر وملء الأكواب ؟ عندما ألح عليه الموظف ، ضايقه ، اخبر سالم المزارع من كفر الشيخ وجندى المشاه ، وفكرى الممثل الذى لا يكف عن ترديد . . « سمعت آخر نكتة ؟ » والشاويش عوض المتطوع ، قال انه سيذهب إلى مصر ليكلم بعض ذوى النفوذ حتى يتوسطوا له . . قال عوض ، وأين سنشرب شايك ؟ مد خضر يده مشيرا إلى النصبة ، قال ، عندكم السكر والشاى ، يكفى حتى أرجع ، ضحك فكرى . . النصبة كلها ستصبح مجهودا حربيا . .

حوادث عارضة :

أثناء جلوسه ببهو العيادة مرتديا جلبابا مكويا ، تذكر دخوله الليل على بكر ، تأمله وجهه النائم ، كأن شخص روى له ما جرى ، سنوات كثيرة مرت ، قال لنفسه بكر ابن حلال ولا ينسانى ، تابع دخول المرضى وخروجهم ، يئز الجرس أزيزا مختصرا فيقوم التمورجى ، امرأة ترتدى ملاءة لف ، تحمل طفلا ، تدعو للطبيب أبن الناس ، تدرك خضر راحة ، يود مقابلة بكر بسرعه ، لو قال للتمورجى . . أنا . . سيدخله فورا ، ربما خرج بكر بنفسه مرتديا معطفه الأبيض ، نظارته ذات الإطار المعدنى ، خضر يتأمل غرفة انتظار الرجال ، حجرة انتظار الحريم ، الحاجز الأبيض ، منضدة مستديرة فوقها مجلات عديدة وصحف ، لا يعرف متى استأجر بكر هذه الشقة ؟ ماذا قال للتمورجى عندما اتفق معه على العمل ؟ ماذا يقول أبناء الحى عن ابنه ؟ كيف يحييهم عند وصوله ، يقولون بارتياح . . الدكتور وصل . . شابة قصيرة القامة تدخل من الباب ، تحتضن كتبا ، تتدلى من كتفها حقيبة قماش ، تومىء للتمورجى ، تقطع الصالة بسرعة ، يقطب خضر عينيه ، عطر خفيف سبح فى الجو بعد عبورها الواثق السريع ، هل جاء فى وقت غير مناسب ؟ لم تنتظر ، لحظ استياء على وجوه المنتظرين ، سمع امرأة تقول : « اصلها

زميلة . . » ، من هذه ؟ تعرف عن بكر أكثر مما يعرف ، فرح ممزوج بخجل يدركه ، لماذا يتخيل بكر صغيرا دائما ؟

رجب محمود . .

يصيح التمورجي ، للحظة لم ينتبه ،

رجب محمود . .

ينتفض واقفا ، أبدى بكر دهشة صادقة ، احتج ، كيف يدخل باسم يجهل صاحبه وهو صاحب الفضل على كل هذه العيادة ؟ لم يدرك كيف يجيب خاصة عندما انتبه إلى وجود الفتاة ، ابتسم بكر . .

أبي . .

خطت نحوه . .

اهلا عمي . .

نظرتها إلى بكر موجزة ، اعتاد كل منهما الآخر حتى ليفهما بعضهما بدون الفاظ مسموعة .

الدكتورة صفاء زميلتي . .

أو مأت ، مضت تزيح الستائر المسدلة على النافذة العريضة ، عادت ترتب بعض الكتب ، فتحت درجا واوشك كتفها أن يلامس بكر عندما

استدارت وراء المكتب قليلا ، تناولت قلما ، تعرف مواضع الأشياء كلها ، جلست فوق مقعد من الصاج الأبيض ، بدأت تكتب ، أدرك خضر حنينا إلى المرحومة ، تذكرها إذ تفتح عينيها بمجرد استيقاظه ، كأنها تدرك بحواسها متى ينتهي نومه ، تقوم ، تسبقه إلى إعداد الشاى والافطار ، إلى يديها إذ تدلكان ظهره عندما يشكو وجعا سببه وقفته اليومية الطويلة ، سأل بكر عن رجب محمود وهل يعرف شخصا بهذا الاسم ؟ قال خضر إنه جندى بالمدفعية ، صمت ، هل ارتفع صوته أكثر مما يجب ؟ أوشك أن يقول ، رجب يشرب عندى من شاى المجهود الحربى ، ليمسك لسانه ، قال بكر لصفاء إن والده يرفض مغادرة السويس . . أطرق خضر ، نظرات صفاء الجريئة نحوه ، قال إنهم يريدون منه مغادرة السويس . . يريدون تهجيره ، انه يرجو من بكر وساطة ما ليبقى ، قال خضر لنفسه إن طلبه الوساطة أمام صفاء سيرفع قدر بكر فى عينيها ، فوجىء بابنه يقول . .

- أنت يجب أن تبقى معى . .

كيف ؟ لم يدرك كيف ؟ هل يناقشه أمام البنت ؟ والسويس ؟ هل من المناسب أن يتحدث عن النصبة ، وعن الشاى ، وعن الزبائن الذين أحبوه ، وائتمنه كل منهم على حاجة ما أو سر خاص ، أبدى بكر اصرارا وقال إنه يجب أن يستريح ، فى الأيام التالية طاف خضر بالأولياء ، زار

الحسين ، صلى فيه المغرب ، والعشاء ، دعا أمام المرقد أن يسجى كل من يعرفهم أو لا يعرفهم ، بعد أن أغلق المسجد أبوابه دار حوله ، أو شك أن يجلس فوق الرصيف بجوار بعض الفلاحين ، تذكر أنه الآن فى القاهرة ، ربما تصادف مرور بكر ، فى ظهيرة أحد الأيام جلس فوق دكة مجاورة لنصبة شاى بالقرب من سيدى الشعرانى ، سأل صاحبها عن سعر الكوب ، كم يبيع يوميا ، عندما لاحظ تساؤلا صامتا قال انه صاحب نصبه شاى فى السويس بعكس ما توقع أبدى الرجل تحفظا زائدا ، سأل بجفاء ، هل هاجرت من السويس ؟ هل ستفتتح نصبة هنا فى مصر ؟ ، فى البيت يرى أرهاق بكر وتعبه ، أثناء تناولهما الشاى ، يسأل نفسه ، هل رشف الشاى بصوت مسموع ، لم يتبادلا أحاديث طويلة فى الليالى التى يعود خلالها متأخرا ، أثناء النوم يتقلب بحذر شديد ، ربما تسبب طقطقة السرير ازعاجا لبكر الذى ينام فى الحجرة المجاورة ، يستيقظ كثيرا ليسأل نفسه ، هل ارتفع شخيره ؟ فى الصباح يكتم سعالا ، يبدو النهار المقبل غريبا ، ماذا سيفعل ، ماذا سيقوم به بعد خروج بكر ؟ يدور حول نفسه أثناء مشيه فى الطرقات ، يتأمل وجوه المارة ، يتابع ايقاع المشى السريع للناس ، كأنه يرتدى ثوبا به رائحة عرق الغير ، افتقد الترقب الليلى اذ تهدر مدفعية رجب طويلا ، تدرك المدينة أن رجالا عبروا فى دورية إلى الشرق ، فى معظم الأحوال لا يخطئون ، يصدر البلاغ ، يردد الراديو ، عبرت قوة من رجالنا

شمال بور توفيق . . أو جنوب حوض الدرس قال لمرجان أنه يود العبور معهم ، قال مرجان ضاحكا قبل إختفائه . . سيحدث يوما يا عم خضر . . تمنى لو عاش حتى يرى هذا اليوم ، قال إنه سيحمل كل ما فى النصبة ويوزعه هناك على الرجال ، كل ما لديه سيصبح مجهودا حربيا ، ماذا لو جرى ذلك أثناء بقائه هنا ، بين كتب بكر ، وأوراقه ، وأدراجه المغلقة ، جاكتاته الأنيقة ، ماذا لو ذهب الجدعان كلهم إلى الشرق ، وهو هنا لا يدرى شيئا عن أرقام التليفونات التى يديرها بكر ؟ المواصلات التى يركبها ، أصدقائه ؟

حوادث تمهيدية

لم يقل خضر لأحد كيف حصل على تصريح بالاقامة ! لم يتغير شىء سوى موقع النصبة ، نقلها رجب وثابت وكمال أثناء غيابه من تحت الرصيف إلى مدخل البيت خوفا من عربات النقل المسرعة ، لم يغير موقع شرفته ، باستطاعته أن يأوى إلى أى شقة فى البيت الذى خلا تماما ، لم ينزل إلى الطوابق السفلى ، أحيانا يستضيف أحد الجنود الذين لم يلحقوا بآخر أوتوبيس ، قد يترك الجندى جزءا من متاعه ، فى حجرته بطاطين رمادية ، حقائب سفر ، سترات مدنية ، يضحك فكرى قائلا إن سر عم رجب باتع ، جميع البيوت المحيطة به إما تهدمت أو جرحتها الشظايا ، أما البيت الذى يسكنه فلم يمس ، خلال تلك الشهور علم الجنود بابنه الطبيب ،

يوما سأله لطفى المنياوى مداعبا « الولد يقوم بالواجب يا عم خضر » ، نظر إليه خضر معاتبا ، قال إن بكر ابن حلال ، يراعيه ، يرسل إليه ما يكفيه ، عندما زاره فى مصر وأقام عنده ترك له غرفته لينام بها ، مضى معه إلى حديقة الحيوانات ، والأولياء ، أغلق عيادته ليقيم معه ، يستفسر عن أدق أحواله ، يسكت خضر قليلا ، يطلب من الله أن يسامحه ، هل من المعقول أن يشوه سمعة بكر بلسانه ؟ ، ثم يسأل محدثه ، ألن يأتى الفرج قريبا ، والفرج فى لغته ولغة الرجال يعنى بدء الحرب ، إن كثيرا من الجنود يجيبونه ، « والله عايزين نخلص يا عم خضر .. ربنا يسهلها » .

مشهد أخير

الساعة ٦٠٠ ، صباح الأحد ٧ أكتوبر

طوال الليل لم ينم ، لم يغمض له جفن ، ليس بسبب الانفجارات التى لم تهدأ ولم يعهد مثلها من قبل ، نزل من الحجرة ، أصغى إلى الراديو مع بعض رجال المقاومة ، لكن نبضا خفيا بدأ يسرى فى المدينة ، كأنها رحم يستقبل أول إشارات الجنين ، نبض يوحى بكل ما يتم فى الظلام ، فى الشرق ، قال للرجال إنه مع النهار لن يبقى دقيقة واحدة فى السويس ، قال أنه سيذهب الى الشرق وراء الجدعان موفيا نذرا قطعة على نفسه أمام عزيز غال اسمه مرجان اختفى منذ ثلاث سنوات .

مع أول ضوء احتوى النصبة بعينيه ، فى فمه مذاق صباحى جديد ، انفجارات متتابعة ، متتالية ، من كل الأنواع ، صاح رجل فى مكان قريب :

« والله زمن يا صالح . . » .

هدير بعيد ، يتذكر بسرعة ذهابه إلى بكر أثناء امتحان الشهادة الاعدادية حاملا لفافة ورق بها رغيف وقطعتى لحم ليأكلهما فى الفسحة الفاصلة بين فترتى الامتحان ، تناول الجردل الفارغ المخصص لغسيل الأكواب ، وضع موقد البريموس رفيق العمر ، هزه قليلا ، تأكد من امتلائه بالكيروسين ، أثناء اشتعاله يدرك الخلل الطارىء من صوت النيران ، لف جميع الاكواب الزجاجية فى جريدة قديمة ، كل السكر ، كل الشاى ، لم ينس حتى أوراق النعناع الجافة ، أين الملاعق ، لن يدع أحدا يذيب السكر ، لا وقت لديهم .

قطع شوارع الأربعين مسرعا فى اتجاه الهاويس ، يحفظ السويس شبرا ، شبرا ، سيعبر أقصر الطرق إلى الموضع الذى نصبوا المعبر عنده ، سيضع العدة فى حفرة على جانب الطريق ، يملأ أكبر براد عنده ، قبل مغادرته النصبة التى أصبحت فارغة تماما الآن ، قال له رفاعى السباك إن فلاحين من الجناين عبروا بأقفاص الطماطم والبلح وافطار ساخن وراء

الجدعان الذين باتوا كلهم ليلة أمس فى الشرق ، لن يمنعه أحد ، القدامى يعرفونه ، الجنود الجدد سيعرفونه من القدامى ، بعبورهم إلى الشرق أصبحت الأرض إمتدادا طبيعيا للسويس ، للمدينة ، سيبحث عن فكرى ، عن رجب ، عن لطفى ، عن كمال ، عن مكرم عن إسماعيل . . يهنئهم بأول صباحية فى الشرق ، ارتفعت الأرض به ، لمح زرقة القناة ، أعمدة دخان بدت متجمدة فى الصباح الباكر ، النقى ، تهوى انفجارات متتالية من السماء ، يمتد الجسر ، يصل الضفتين ، يربطهما ، يضطر إلى التوقف لحظات ، سيارات نقل ضخمة تتجه إلى الجسر ، صناديق الذخيرة ، المستطيلة الرمادية ، جنود فوقها ، يلوحون بأسلحتهم ، أحدهم يصيح . .

عم خضر . . عم خضر . .

من ؟ لا يدرى من ؟ تبتعد الملامح مع اندفاع العربات المهتزة مع مطبات الطريق ، يحاول الاسراع بقامته المنحنية وخطواته العجوز ، عرفه الجدعان ، لا يعرف من صاح به . . سيبحث عن كل احبابه ، سيوزع كل ما لديه على من يقابلونه ، أمام الجسر ، فوق الجسر ، فى الشرق . . كل ما لديه مجهود حربى . . ربما فوجىء بمرجان يناديه يحتضنه ، يكشف

عن صفين من أسنان لامعة ، يهتف مادا يده بكوب الشاى . .

« غيبة وطالت يا مرجان . . » .

يونيو ١٩٧٦

الوجبة

(١)

.. اليوم ، لم تتوقف طويلا أمام أى شقة فى الطوابق الخمسة ، اكتفت بإيماءة رأس سريعة وكلمات قليلة لجارتها اللاتى فتحن أبوابهن ، جلسن أمامها يتحدثن ، عادة بعد رجوعها من السوق أو زيارة أحد الأولياء تتوقف ، ! تلتقط أنفاسها ، السلم المؤدى من طابق إلى طابق يتكون من ثمانى عشرة درجة حجرية يحفها دابزين خشبى قديم يهتز إذا ما استند إليه أحد ، يدور حديثها مع جاراتها حول أسعار الخضر فى السوق ، الشكوى من غلاء الأحوال ، لقاء عابر بامرأة عرفتها يوما ، خبر زواج ، موت أحد

المعـارف ، استفسار عن احتمـال تخفيض سعر الكهـربـاء ؟؟ اليـوم لم تتوقف ، صعدت بحملها الثقيل ، حقيبة البلاستيك ، تبرز منهـا رأس قرنبيطة ، قرطاس تبلل ورقه بضغط ثمرات الطماطم الليـنـة ، بصل ، كـرات وبقدونس ، اليـوم يجيىء من الشهر إلى الشهـر ، تنتـظره ستـة وعشرين يوما ، لا وقت تضيعه ، عنـدما وصلت السـطح اضطرت إلى التوقف لحظات قبل أن تقطع الخطوتين المتبقيتين إلى باب الحجرة ، الضوء منبسط ، دافىء عدا مساحة متساوية مغطأة بظلال سور السطح الواطىء ، وسقف الغرفة مغطى بصناديق خشبية قديمة ، قوالب أحـذية خشبيـة ، صفيح ، زجاجات فارغة امتلأت يوما بعطور بأحبار بأدوية ، بقايا سكان قدامى تداولوا على الحجـرة ، أكوام من التـراب وقطع الحجـارة ، أول الشتاء اهتزت جدران الغرفة برياح عالية الصوت ، نفذت من فراغات غير مرئية ، تهز لهب المصباح اليدوى ثم جاءت الأمـطار ، ابتل الفـراش ، سقط المطر على البلاط المكشوف بصوت عال كصنبور لم يحكم إغلاقه ، عندما وصل أبدى خوفا عليهـا واهتمامـا ، سألهـا ، هل ابتلت ؟ هـل ارتعشت ؟ طمأنته كعادتها ، لـو هاجمتهـا أقسى الأوجاع ، لـو وخذتهـا الأبر ، ! لا تلفظ آهة ألم حتى لا تزعجه ، نزل يومهـا إلى الحارة ، عـاد بمقطف ملأه ترابا وأحجارا صغيرة ، صعد فوق سلم خشبى قصير امسكته بيدها حتى لا تهتز ، نزل مرة أخرى ، فى نهاية اليوم كـدس أكوامـا من

التراب حتى لا يتسرب اليها المطر ، لم تخبره بدخول الهواء البارد كسن المقص من الشقوق الخفية فى الجدران حتى لا يشغل وقت الأجازة كله ، أنها تفك الآن حزاما من قطعة قماش مبرومة ، ربطت به ملاءتها اللف حول حضرها ، يبرز أصبع قدمها الكبير من تهتك أصاب مقدمة الحذاء البلاستونيل ، تنظر بارتياح الى الحجرة منذ ثلاثة أيام غسلت غطاء السرير ، أخفت المساحة المحترقة منه ناحية الجدار ولفته بإحكام حول المرتبة نظفت زجاج النافذة ، وأزالت عش عنكبوت تكون فى الركن الأعلى المواجه للسرير . فى الفراغ رائحة البلاط القديم الممسوح ، من المسمار المغروس فى الجدار يتدلى جلبابه . . .

(٢)

تتطلع إلى الظل ، تتعرف على الوقت من حركة الظلال الرمادية قبل المغرب بوقت كاف يتم كل شىء ، عند وصوله لا تقوم إلا بتسخين الطعام فقط ، بعد أن يخلع ثيابه ويغسل وجهه فى دورة المياه التى تقوم عند الطرف الآخر من السطح . يخرج مشمرا بنطلونه ، إنها تخرج أوانى عديده الآن ، صينية ، مصفاة طماطم ، هون نحاس قديم ، حلة الومنيوم متوسطة الحجم ، سكينا قصيرة ، تنزع القشور الخارجية للبصل ، تقطع رأس الثمرات بالسكين ، طعناتها قصيرة موجزة بالطول ثم بالعرض . يتساقط

فتات البصل ، تتوقف ، تمسح أنفها بظهر يدها ، تغمض عينيها ، تفتحهما ، آلاف المرات التى لا مست فيها الرائحة أغشية أنفها لم تصبها بتبلد ، تمسح يدها بحواف جلبابها ، إنها تبتسم ، يميل رأسها ، تصفو ملامحها بتأثير صور قديمة . يوم انتظاره يجيئها سيل من تلك الأيام ، تذكره الآن صغيرا ، يعود من المدرسة ، عندما يراها تقشر البصل أو تعصر الطماطم يصيح أنه سينزل فى الحارة ويرجع ، تومىء موافقة ، لكنه يعود بعد قفزة لعشر درجات من السلم ، يسألها ، متى ستنتهين من الطبيخ ، تقول ، حالا ، يجلس القرفصاء ، بجانبها ، عندما يبدأ اللون البنى يتسرب إلى البصل تطلب منه أن يأتى بنصف رغيف ، تضع فيه قليلاً من التقليه ، تطلب منه أن يتصبر حتى ينتهى الطبيخ ويجىء أبوه ، فى الصباح تعطيه نصف رغيف محشو فولا ، أثناء نزوله السلم تصيح عليه كى يحذر عبث الصبية ومحاولتهم خطف طعامه وكراريسه .

إن ملامحها تصمت فجأة ، تلم للحظات شفتيها إلى داخل فمها ، تعيدهما إلى وضعهما الطبيعى ، تتحرك مرات متنقلة بين الحجرة ، ودورات المياه وعشة قديمة صغيرة تضع بها الثوم والبصل وكيلو بامية مجففة وآنية فخار مكسورة العنق ، آخر ما تبقى لديها من أوان جاءت بها من الصعيد منذ سنين بعيدة ، تتأمل الظل ، يغطى جزء أكبر من السطح لكنه لم يصل

بعد إلى صف البلاط الرابع ، ما زال الوقت مبكرا على آذان العصر ، يمكنها أن تصلى الظهر حاضرا .

(٣)

تقول دائما عن موقد البريموس أنه « عشرة » العمر ، الآن تدفع الكباس ، تعلو النيران تتقدمها خيوط دخان تبدو ظلالها على البلاط أشد كثافة من قوامها فى الفراغ ، تتراجع إلى الخلف حتى تنتظم النيران ، كثيرا ما قال لها ، ابتعدى حتى لا تلمس النيران شعرك ، قوائم الموقد الثلاث تميل قليلا عن وضعها الطبيعى ، يبدو على اثنتين منها لحام حديث ، لا يمر أسبوع إلا وتنزل به إلى سباك قريب ، إن أقذارا كثيرة تراكمت على نحاسه الأصفر ، تجمدت فكأنها جزء منه ، لم يستمر انتظام النيران طويلا ، نفخت بفمها ، صاحت ، « اعتدل وإلا خبطتك فى الأرض » ، يضحك عندما يسمعها تزعق هكذا ، تنحنى ممسكة الابرة تحاول تسليك ثقب الغاز ، ترتجف النيران مرات ، ثم تنتظم زهرة من لهب تتوج الموقد النحاسى ، تقول بارتياح . .

« أكمل جميلك حتى تنتهى الطبخة . . لا تكسفنى » .

يأز صوت النيران ، بملعقة صغيرة تفرغ الكوب الممتلىء حتى نصفه بالسمن ، تتحول القطع المتجمدة إلى سائل أصفر يزدحم بفقاقيع صغيرة

متألقة ، تتلاشى ، تنمو من جديد ، يبدو السمن المنصهر متأهبا لا ستقبال البصـل والفلفل وعصـير الـطمـاطم ، أشعـة الشمس تتـدفق كـالمرق الساخن ، أزيز الموقد يدركه وهن ، تصيح . .

« خلى عندك دم . . لم يبق وقت لدلعك » .

آخر أجازة لحظ تعبها مع موقد البريموس ، اقترب منها فى الصبـاح المبكر ، أمسك كتفيها فى إحدى المرات القليلة التى تتلامس فيها أيديهما ، أنهما يتواجهان ، تتحرك فى حبه ، وعطفه فهـو ما تبقى لهـا يتتابـه حنين واحترام لأمة العجوز التى لم تهدأ طوال حياتها ، يقول لزملائه إنه لم يرها نائمة ابـدا ، ودائما تقـوم قبله وتنام بعـده ، تترقـرق مشاعـره ، لكنهما لا يتبادلان القبلات ، لا يعبران عما يشعران به بالكلمات غير أنه فى آخر أجازة أحاطها بذراعيه ، قال . .

« ولا يهمك . . بعد إنهاء الخدمة ساشترى لك « بوتجاز » .

همست بخجل وسرور . .

« تجيبه لبيتك يا بنى إن شاء الله » .

(٤)

آذان العصر من المساجد القريبة ، مذياع بعيد ، تقوم إلى السور ، تحتضن الفراغ بعينيها ، بعد صلاة الجمعة فى تلك الأيام البعيدة يجلس

أول السلم ، يصغى إلى برنامج ساعة لقلبك ، ربما يقفلونه أو يخفضونه ، عندئذ لا ينهى قعدته مباشرة إنما يمكث قليلا ثم يقطع السلم عدة مرات قبل أن يتكىء إلى السور متأملا هذه المآذن البعيدة ، تنظر الآن إلى مئذنة الحسين الرشيقة ، النحيلة ، طافت بالمقام ودعت له أن يشفيه من مرض أو يوفقه فى المدرسة أو يثبته فى الوظيفة ، منذ ذهابه إلى الجهادية تدعو له ، لزملائه ، لكل أبناء الناس الذين يعيشون فى الخطر ، تدعو لزملائه فى الملجأ ، تعرف أسم كلا منهم ، تلفظ الآن دعاءها « إن شاء الله يا سيدنا الحسين » ، غبار معلق يضفى على البيوت البعيدة رمادية داكنة ، أما البيوت القريبة فيميل طلاؤها على اختلافه إلى إصفرار بتأثير الشمس المنكسرة باتجاه المغيب ، بعد ساعات سيتمدد فوق السرير وتقعد فوق الأرض ، رأسها يحاذى صدره ، يسألها ضاحكا عن الأخبار ، تحكى عن البيوت ، عن الخناقات ، عما رأته أثناء زياراتها للأولياء ، يقاطعها . .

« خذى بالك وأنت تعبرين شريط الترام . . » .

ستحدثه عن اهتمام محمد الخضرى بها وقوله بصوت مرتفع لصبيه إسماعيل « اقضى حاجة الست الحاجة . . ادع لنا يا أمى » وردها عليه « الله يبارك لك فى رزقك » ، الآن تتطلع إلى الطريق ، مارة ، جلابيب ، قمصان ، بنطلونات ، طفل يدحرج طوقا ، رجل يعانق رجلا ، يتراجع لحظة برأسه ثم يستأنف العناق ، فوق سطح المصبغة يمشى رجل يحمل

خيوطا صوفية مبلولة ، ينشرها على أعمدة خشبية ممتدة ، يصيح منـاديا شخصا اسمه « حسين » . .

(٥)

بطرف لسانها تتذوق الطبيخ بعد أن أضافت ملحا ، منذ عشر دقائق أضافت نصف كوب من الماء ، فى نفس المكان الذى يأز فيه الموقد الآن جلست أمام الطشت ، فوق كرسى الحمام يقعد فى مواجهتها ، يحدثها عن أستاذ العربى الطيب ، وأستاذ العلوم القاسى ، الأول لا يضرب والثانى يقسو على التلاميذ ، تصغى إليه ، تدعـو لأستاذ العـربى وتلعن مدرس العلوم ، بين الحين والحين تطلب منه أن يناولها صابونة أو كوز الصفيح ، شاء المرحوم أن يعلمه حتى النهاية ، لكن الزمن يبدل ويغير ، الآن يعلو صوت المذياع ، تنظر إلى الطريق ، ثلاث فتيات ، سقاء يدفع عربة محملة بقرب المياه ، يخفق قلبها فجأة ، جندى عند المنحنى ، لكنه قصير ، غطاء رأسه أسود اللون ، تستطيع تمييز قامته وطريقة مشيته ، تماما كـالمرحـوم والده ، انحناءة جذع الجسم الأعلى إلى الأمام قليلا ، ربما لأن ثقل جسـمه يستند إلى أطراف أصابع قدميه ، تذكر الآن آخر مرة خرج فيها ، تابعته فى بداية النهار الرائق كـالحليب ، فى الفناء رفـع رأسه مبتسـما ، اختفى ، تابعته ، مدت جسدها إلى أقصى ما تستطيع ، عند المنحنى توقف لحظة ،

عدل وضع غطاء رأسه الأزرق ، كثيرا ما قالت لجاراتها أنه فى الصاعقة ، عندما تسمع اسم منطقة الكاب فى أحد البيانات العسكرية يهبط قلبها داخل جسدها مقدار اصبعين متجاررين ، إذا تصادف لقاؤ ها بإحدى صاحباتها وسألتها عنه ، تقول إنه فى الكاب ، وتفكر ، « الصاعقة هناك » .

إن أزيز الموقد يتوقف إما لنفاذ الكيروسين أو لعدم دفعها الكباس لفترة . .

مصباح ضيىء .

إن ثقبا يغرى صدرها ، ينبعث ضوء آخر من دكان سعيد البقال ايد خفية تنثر الضوء فى الفراغ ، قرآن من مذياع قريب « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلا » . . تعجز عن تمييز الملامح مع نزول الليل لكنها تستطيع رؤ ية جرسون مقهى الميدان يرش الأرض استعدادا لاستقبال الزبائن الليليين ، عند الطرف القصى للرصيف المحاط بسور حديدى يجلس شخص ما يدخن نرجيلة وضعت أمامه منذ دقائق ، ترفع عينيها إلى السماء الرمادية ، ترجو النهار ألا يرحل والليل ألا يقبل ، تود لو أغفت عينيها قليلا ، تفتحها لتجده أمامها وأن يوقظها ، منذ سنوات طويلة لا تذكر مقدارها ، وضعته فوق السرير طفلا رضيعا نائما ، قعدت

خارج الغرفة تغسل بعض ثياب المرحوم ، صباح شتوى عتيق لا تدرى الآن فى أى السنوات هو لكنها تعى حدة الهواء البارد وكثافة الغمام فى السماء ، اهتز الباب بتأثير الهواء ، لم تنتبه إلا على صوت اصطدامه ، أغلقت الحجرة تماما ، المفتاح بالداخل ، دارت بعينيها حولها ، راحت ، جاءت ، نزلت إلى جارتها الست روحية « الحقينى يا أم كاميليا » راحت تبكى ، طمأنتها ، جاءت أم سعدية أيضاً ، وقفن يعالجن الباب ، انزوت هى بعيدا عنهن ، تعض أصبعها بقوة ، تبكى ، عندما نجحن وفتحن الباب ، أسرعت ، وجدته نائما ، لم توقظه الضجة ، احتضنته ، قبلته ، لم تتوقف عن البكاء ، صاحت الست روحية :

« الولد سليم والحمد لله . . والباب فتح . . لماذا تبكين ؟ آه . . لماذا تبكين ؟ » .

(٦)

تتوالد النجوم بكثافة ، تخف الرجل من الطرقات ، تبدو العدوة خطى العابرين ، يسرع الترام ، حركة ما بعد العاشرة ليلا أو الحادية عشرة لا تدرى ، الظلال غطت الدنيا وأسود لونها ، كيف ستميز الوقت ؟ هل أخطأت فى حساب التاريخ ، بالضبط اليوم اثنين ، لم تجلس منذ ساعات ، يسرى نمل خشن تحت جلد ساقيها تستدير ، من تسأل ؟ الى

أين تمضى ، إنها فى أشد الحاجة إلى الحديث مع . . مع من ؟ لو جاء فى ميعاده لبدأت جلساهما الليلية منذ فترة ، تبتعد عن السطح ، تعود لتطل ، تزحف برودة على الطريق ، ربما عبره فى تلك اللحظات التى ولت بنظرها عنه ، تبتعد عن السور مرة أخرى ، لا تنتبه إلى الموقد الهامد ، البارد ، ولا تشعر بوجود الإناء يحوى الطبيخ فى فراغ السطح ، لم ترفع غطاءه ، لم تغرف منه ، لم يرفع اللقمة المغموسة فى المرق ويقول « وحشنى أكلك » ، لم تمسك بقطعة لحم وتصر على أن يأكلها ، يجيبها بأنه شبع وأمام إلحاحها يقول « تعزمين على . . أنا غريب ؟ » إنها تعبر السطح بسرعة ، تتذكر المرحوم اذا يعطى للصغير نصيبه ، ثم يعطيها نصيبها ، تقسم ما أخذته قسمين ، لا يمكن أن تدخل لقمة إلى فمها لم يذقها ، تنزل الدرجات ، كتفاها هابطتان ، تحت حمل غير منظور ، تقف أمام باب الست روحية ، صوت أنات الأسطى حمدى الترزى يطلب كوب ماء ، شبشب يأط فوق بلاط الصالة ، عبر الباب المغلق تشم رائحة هذا الحديث الليلى والاسترخاء المتعب ، أبواب الشقق التى أغلقت ولن تفتح الا صباح الغد ، لا ينتظرون زائرا أو قدوم غريب أو قريب ، شظايا ضحكة بعيدة ، كيف ستطرق الباب ؟ فراغ البيت مثقل برائحة هى مزيج من آثار بصل ، أثاث قديم ، بلاط ممسوح ، مبيدات حشرية ، عطن غامض ، الشقق كلها مغلقة ، آخر أجازة قال نفس العبارة التى اعتاد لفظها عند ذهابه :

« إذا خبط أحد الباب .. لا تفتحى إلا إذا تـأكدت أولا ... من هو؟ » .

(٧)

تضيع بقايا أضواء البيوت ، دوائر النور الشاحب تحت المصابيح فى الطريق البعيد ، إنها وحيدة تماما مع الليل ، صفير قطار بعيد كالأنين ، ربما يجلس بأحدى عرباته ، ربما يقترب الآن ، ربما يعبر الناحية الغربية ، يفتح باب التاكسى أو الأتوبيس أو يقفز من عربة نقل ، ربما يحث الخطى ممسكا حقيبة اليد التى تمتلىءبثيابه الداخلية وفـوط الوجـه ، اعتادت أن تغسلها كل أجازة وتنشرها على الحبل الممتد فوقها ، ربما يجتاز نقطة ما على الطريق الصحراوى فى بطن الليل ، ربما يحملق بعينيه مفكرا فيها وكيف سيلقاها .. ربما ...

مارس ١٩٧٦

حكايات الغريب

.. فى يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق إلى السويس للمدنيين ، قام رئيس العهدة المخزنية بالمؤسسة العامة المعتمدة للتوزيع والانتشار بكتابة مذكرة يعرض فيها موقف الاسطى عبد الرحمن محمود ، حيث إن المذكور قام فى تمام الساعة السادسة من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ محمله بصحف وكتب ومجلات لنقلها إلى مدينة السويس وتسليمها إلى الحاج حسن السوداني متعهد التوزيع هناك ، وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيادة رحلات المؤسسة إلى السويس ، واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحنيات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير

أن أخباره انقطعت تماما منذ ٢٤ أكتوبر ، وأصبح موقف السيارة الفورد والبضاعة غير معروف مما تسبب فى وجود فجوة فى دفاتر العهدة .

وفى يوم الأحد ٣ فبراير ، أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكرة عليه ، إذ إن الموضوعات التى يقرأها دائما ذات طابع متشابه مهما اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل ، لهذا رفع السماعة وطلب رئيس مجلس الإدارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسافر إلى السويس وتستقصى الحقيقة حول مصير العهدة ، وفى تمام الساعة الواحدة والربع بدأت الآنسة سنية نسخ المذكرة الخاصة بتشكيل اللجنة بعد أن أنهت مكالمة تليفونية طويلة مع إحدى صديقاتها . وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور ، يحمل توقيعا رئيسيا لمدير المؤسسة ، وتوقيعا جانبيا لرئيس قسم العهدة ، وأسفل الصفحة اسم « سنية » التى نسخت القرار . ضمت اللجنة الأستاذ الجواهرى رئيس العهدة ، وسعيد طايل الموظف بإدارة الأفراد وشفيق نصرى الموظف بقلم التوزيع . عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ لكل منهم كبدل سفر لمدة سبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهرى كلمة حتى لا يقال أنه اشترك فى مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير ، إنه موظف قديم خدم من قبل فى ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماما بالأصول والقواعد ، فى اليوم التالى عقد اجتماع

آخر ، فى بدايته ضغط الأستاذ الجواهرى زرا جاء بعده عامل البوفيه ، طلب طايل أفندى شايا ، أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع أسعار القرفة وندرتها ، أبدى شفيق أفندى ضيقا وقال إن البوفيه سيىء ولابد من تغيير المتعهد ، اعتذر ، أشار رئيس اللجنة إلى المهمة الصعبة التى تنتظرهم ، واستفسر عن تصور كل منهما لخطة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل أفندى البدء هنا ، ضرورة الذهاب إلى أسرة المذكور واستجواب أمه أو زوجته أو أولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، أشار الأستاذ الجواهرى إلى ملف أزرق . قال إن الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل أفندى ، كيف فاتتهما الفكرة ؟؟ تم استعراض محتويات الملف واتضح انه يضم ما يلى . .

* شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ، من مواليد عام ١٩٤٤ .

* اسم والده محمود على أحمد . اسم والدته نجية ، تم تطعيمه مرتين ، الأولى ضد الجدرى ، والثانية ضد الدفتريا . .

* شهادة حسن سير وسلوك ، موقعه من موظفين اثنين ، مؤرخة ١/ ١٩٦٧/٨ .

* تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواع السيارات .

* شهادة خبرة من المؤسسة المصرية العامة لنقل الأوعية الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات فى خدمة الشركة . .

* شهادة معافاه من الخدمة العسكرية . نظراً لأنه الأبن الوحيد وعائل أمه . .

لاحظ الأستاذ الجواهرى خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات طلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل أفندى الذهاب إلى أسرة المذكور غدا مع احتساب المدة التى سيقضيانها بالعطوف من الفترة المخصصة للمأمورية ، تمهل الأستاذ الجواهرى فى الموافقة ، خاصة وان الاقتراح يعنى تقاضيهم بدل سفر عن يوم سيقضونه فى القاهرة .

.. العطوف ..

بعد بحث استغرق ساعة . تخللها سؤال أصحاب دكاكين ، وصبية ، وجرسون ، وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، وصلت اللجنة إلى المنزل رقم ١١ ، أثار ظهور الأفندية اهتماما فى الحى ، وسارعت امرأة تبيع المحشى إلى الاختفاء ظنا منها بأنهم من الصحة ، صاحت احداهن على الست أم عبد الرحمن لتكلم « البهوات » ، خرجت امرأة حافية ، تحيط نصف وجهها بطرحة ، أثار خجل أنثوى ما زال متبقيا مع العمر المتقدم

تساءلت عن أخبار عبد الرحمن ، من هيئتهم عرفت انهم جاءوا من أجل ابنها ، تطلعت إلى الأستاذ الجواهرى ، أدركت من سنه وحركته البطيئة واحاطة الشابين به أنه أهم الثلاثة ، تقدمتهم عبر فناء به مياه غسل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند إلى حامل معوج وسلم طويل بدون درابزين ، يؤدى إلى مجموعة من الغرف المفتوحة المتجاورة ، أطلت طفلة اختفت ، عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت انثوى يطلب من محمد سرعة ارسال اكواب الشاى إلى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهرى صوت كباس موقد غازى صاح طالبا منها أن تخضر لأن وقتهم ضيق ، لأحظ شفيق أفندى صورة حجم كارت بوستال معلقة فى مواجهة الكنبة القديمة ، تشبه الصور الصغيرة الثلاث فى الملف ، عينان واسعتان تحملقان إلى الأمام ، على الإطار الأبيض أكلشيه أزرق « ستوديو الأزهر » . قالت إن أحدا لم يدلها ، تمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود من الباب ، قاطعها طايل افندى قائلا إن البك حضر بنفسه اليها ، قالت إن أحد زملائه كتب خطابا على لسانها إلى مأمور القسم ، والمحافظ . أخذه منها جدع طيب يرتدى قميصا وبنطلونا لم تره أبدا بعد ذلك ، قالت أن عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدا لفظ « سندها » لشفيق افندى كأنه عويل ، لاحظ وشما أخضر باهتا يتوسط جبهتها ، تبدو فى جلستها أكثر ضآلة ، فكر ، انها

أم ، بحث الأستاذ الجواهرى عن الفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفككة فى المذكرة ، قالت إن ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسه أبدا ، لم يتشاجر مع إنسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها إلى المصالح وأقاربها الموظفين بحثت عن ملامحه بين الوجوه ، ركبت الترام وعبـرت طرقات لم ترها ، وجلست مرة بجوار شاب يقرأ جريدة ، هل يوجد ناس فى السويس ؟؟ سألها ، هل أنت مهاجرة يـا أمى ؟؟ . قالت إنها لم تـر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج إلى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا إليها . لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس فى السويس يا أمى . هل تصلهم مياه ؟؟ قال اطمئنى يا أمى الماء عندهم أكثر من هنا ، سكت لحظة وقال أن عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال . مياهها عذبة حلوة تكفى بلدا . أشـارت بأصبعهـا إلى أعلى ، قالت إن (جدعانا) كثيرين ماتوا . ولو تأكدت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهرى عينيه ، طلب التأكد من آخر مرة حضر فيها عبد الرحمن إلى البيت ، قالت إنها تذكر خروجه وكان ساعة واحدة انقضت ، بعد نزول السلم طلع مـرة ثانيـة ، قال (خـلى) بالـك من نفسك ، نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، لو أن نافذة الحجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح على منور داخلى تغلقها دائما خوفا من الابراص والهوام ، قالت . . مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة . .

أتت بيدها حركة ايقن شفيق أفندى معها أنها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة . وأنها تعانى الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وانها ستبكى بلا انقطاع بعد انصرافهم ، إن حواسها واهتمامها كله من أجل استكشاف أمر لو ضئيل يخفيه عنها هؤلاء الأفندية ، ينحنى الأستاذ الجواهرى ، لهجته بطيئة ، يقول إن السائقين يلفون ويرون الكثير من البلاد والعباد . ألا يحتمل لقاؤه بامرأة لفت عليه . . أغوته . .

(لا . . عبد الرحمن ما يعملها) . . قالتها باختصار شديد ، تحاول اخفاء استنكارها كجزء من احترامها لهؤلاء الاغراب الذين يمتون بصلة ما إلى أبنها ، كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه على صفية المغربى ابنة جلول بائع العطور أخبرها . طلبت منه توفير بعض المال ، اقترحت عليه النزول ليعمل سائقا على التاكسى لم يتزوج ، لم يقسم له نصيب من سنية ، ينظر الاستاذ الجواهرى إلى عضوى اللجنة ، لم يعد ما يقال مهما ، إن الساعة تقترب من الواحدة . بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن ، لم يسكتها وقوفهم ، عندما فاجأت الصرعة اسامة ابن الست روحية جارتهم استغاثوا بعبد الرحمن نزل السلم يحمله ، ايقظ الدكتور عبد المعطى الذى يسكن فوق عيادته ، قال لو جاءته مثل هذه النوبة عليهم تغطيته بملاءة سوداء وأن يضعوا شيئا صلبا بين اسنانه .

ينزل الأستاذ الجواهرى . يتجمع صبية صغار . يبدو أن الست أم عبد الرحمن لا ترقبهم الآن ، تتحدث إلى شخص ما ، بدأ هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملامحها وجمود وجهها ، تقول إن أول مرتب قبضة جاءها به ، قال إنه يتفاءل عندما يعطيها أول خيره ، أمام البيت تقترب منهم امرأة تحمل طفلا . تهمس . طوال اليوم على هذا الحال ، ينام الحى كله فى الليل لكن صوتها لا يهدأ . تحكى عن عبد الرحمن ، مسكينة . . أصلها لم تر أبيض وأسود من ساعة غيبته .

« ملحوظة » . .

يجب الإشارة هنا إلى أن مهمة اللجنة عسيرة ، إذ لم يسبق القيام بمثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهرى على التزام الحذر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد اجتماعا فور وصولهم السويس . طلب شفيق أفندى ذهابه إلى المستشفى فى الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهرى ليستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر إلى مقر المحافظة . ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمى ، قام الأستاذ الجواهرى ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم ألا يقلقوا وأنه فى أمان ، بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التى تدعم صحة ما يذكر فيه من أحداث ، وتواريخ ، وأقوال شهود . .

المستشفى ..

اعترضه رجل يرتدى معطفا أبيض ، أبرز التصريح ، قال إنه يود لو قابل المدير شخصيا ، غير أن الرجل قال ، هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحى كثيرين فى بداية المعارك ، مدنيين وجنودا ، حتى الرجوع إلى سجلات المستشفى لن يفيد فى قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتح لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذى عاش الحرب والحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فيشاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء الحصار ، قال إن الأهالى يعرفون الاغراب الذين احتجزتهم قطع الطريق . نظر شفيق أفندى إلى الأرض المبلولة . والممرضات يرحن ويجئن . ترى . . من رأى عبد الرحمن ، عض شفته ، سأل ، ألا يمكنه التعرف عليه لو رأى صورته ؟؟ ابتسم الموظف ، قال إن طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وأنه منتدب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئا . ثم هناك استحالة التعرف على الشخص من الصورة ، ربما حدثت به تشوهات أو اصابات بالوجه ، ثم إن الإنسان تغير ملامحه تغيرا كبيرا زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤ ية الموت والقتال ، سكت الرجل لحظة ، وقال . . عموما اذهب إلى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم ، لكن المسئولين عن الدفاتر والسجلات اعتذروا عن تقديم أية

مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات أثناء قصف مدفعى قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءا من المبنى ، الثانى يتعلق بالوقت الذى يستلزمه حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثالث والهام أن كثيرين جدا لم تدون أسماؤهم ، وآخرون قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقييد أى مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توفر الوقت الكافى ولا نشغال الممرضين والأطباء والموظفين فيما هو أهم مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على الأقسام طبقا لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تساءل شفيق أفندى ، هل جاء الأسطى عبد الرحمن إلى هنا ، هل خرج إلى مكان ما ؟؟ فى الطريق الصحراوى على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، يبرز منها إطار عربة ، أكياس قماش ، فردة حذاء رأى بعينى عقله الأسطى عبد الرحمن يقود عربته فى صحراء ملتهبة ، قدماه تضغطان دوسات السرعة ، قبضات نيران تومض هنا وهناك يتحرك الأفق حركة دائرية كأن اندفاع السيارة يبرز دوران الأرض . لكن يجىء الوحش المعدنى هادرا ، يدوس السيارة يعلوها ، يتجاوزها ، على جانبى الطريق رأى لافتات عبرية صغيرة ، زجاجات كوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية . ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

أليس من المحتمل تعرض الأسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟؟

وقتها نظر اليه الإستاذ الجواهرى ، قال بلهجته البطيئة . . هذا ممكن . . لكن من يثبت هذا ؟؟

« من التقرير اليومي لطايل أفندى »

. . كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت تمارس عملها وتؤدية طوال يومى ٢٢ ، ٢٣ اكتوبر ، وعندما بدأت علامات الهجوم على المدينة استطاع أحد الجنود أن ينقل الدفاتر والتصاريح التى تسجل حركة المرور من وإلى المدينة عبر الطريق الصحراوى ، وبالبحث ثبت ما يلى . .

« إنه فى تمام الثامنة و٤٥ دقيقة دخلت العربة رقم ٦٧٠٧٣ . نقل القاهرة ، يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقته الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية ، وحامل تصريح مرور مستديم من وإلى السويس . وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح ٢٣ اكتوبر . وسألت سيادته عن احتمال مغادرتها بعد مجىء قوات الطوارىء الدولية لكنه نفى ذلك ، لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندى سيد أحمد أهل ، وهو الوحيد الباقى من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجندى المذكور إنه صباح يوم ٢٢ أكتوبر دخلت عربة النقل المشار إليها قال انهم يعرفون سائقها لتردده المستمر خلال الحرب . وأنه صاح من نافذة الكابينة

بعد تدوين العربة « شدوا حيلكم يا أبطال » عاد فى المساء . لكن الظروف تغيرت إذ قطع اليهود الطريق فى عدة أماكن . كثرت الأخبار أنهم فى الطريق إلى البلدة للهجوم عليها . أشتد الطيران ، وجاء الفلاحون من (الجناين) وجنود شاردون . آخر عربة ظهرت أمام النقطة هى سيارة الأسطى كمال .

وهنا استوقفت الجندى سيد أحمد الأهل وبدأت استجوابه بحضور قائد عموم المرور نظرا لتناقض أقواله .

س : من تقصد بالأسطى كمال ؟

ج : سائق اللورى المبين رقمه فى دفتر الحركة . .

س : انه اللورى المدنى الوحيد المبين فى هذا اليوم . . هل تقصد سائقا آخر ؟

ج : أقصد سائق لورى الصحافة .

س : اسمه فى الدفتر عبد الرحمن

ج : ناداه الباشجاويش دائما . . يا كمال . . وعندما جاء الطيران يقفز معنا إلى الخندق وسمعت الباشجاويش يقوله له . . لا تخف يا كمال يا بنى . . ورأيته ثابت الوجه متعجبا . فسألته ألم ير ضربا طوال حياته . فقال انه جاء الى المدينة أيام الحرب لكن الأمور لم تصل الى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاويش قلة ماء مكسورة الفوهة ، شرب ماء قال . .

تشرب يا كمال فهز رأسه قال إنه ليس بعطشان . .

س : ألم يدخل لورى آخر فى هذا اليوم ؟ . .

ج : لورى واحد . .

س : ربما سمعت الاسم خطأ . .

ج : أبدا . . فى مرة بعد انصرافه وقف الباشجاويش ساهما ، وسمعته يكلم نفسه . . قال إنه شبه ابنى كمال . . أى والله الخالق النـاطق . . كمال أبنى . .

س : بعد انتهاء الغارة أين ذهب ؟؟

ج : عاد باللورى إلى داخل البلد . . ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق

ملاحظات الأستاذ الجواهرى

. . ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ . خلال الحصار ، وأفادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة بعضها إستخدم كمتاريس أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البنزين أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها . وجدناها متفحمة تماما . منزوعة الاطارات . مضغطة فى

بعضها لدرجة أن كابين القيادة اندمج بمؤخرتها.. كما احترق طلاؤ ها تماما . وحاولنا العثور على لوحتى الأرقام لكن يبدو أن بعضهم انتزعها إذ وجدنا المسامير القلاووظ التى تربطها مفككة وملقاة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات هو فنى معتمد لمعاينة الحطام مقابل ثلاثة جنيهات (مرفق ايصال بالمبلغ) . وأفاد أنها من طراز فورد ، لكنه لم يحدد اية مواصفات أخرى ؟؟

« . . بزيارتى للمسئولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر جميع الأهالى بالمدينة بعد معارك يومى ٢٤ ، ٢٥ أكتوبر . لتوزيع المئونة عليهم وقالوا إن الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة » . .

« . . لم يتعرف أحد من المسئولين بالمحافظة . وقوة عموم المباحث على صور المذكور ، ولم يدل أحد بما يثبت أنه رآه قبل أو خلال أو بعد الحصار » . .

شفيق افندى يحاول استقصاء الحقيقة ..

.. مساء اليوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجـواهرى اتصالا بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده إلا يعاكس أمه ، كما طلب من زوجته أن تستعجل قمصانه التى أرسلها إلى الكواء قبل سفره ، وبعد اتخاذ طايل إفندى ترتيبات لشراء سمك من الخليج الذى بدأ الصيادون فى النزول اليه ، اتخذ الأستاذ شفيق أفندى طريقة لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائيين ، أبدى أكبرهم سنا دهشته من هدف اللجنة ، تساءل ما الذى ينتظر من سائق عربة توجه صباح ٢٢ اكتوبر إلى السويس ولم يعد ، حاول شفيق افندى شرح الظروف والملابسات ولمح إلى القوانين الجامدة والعهدة والمخازن . خجل ، بدأ يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله ، لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائيين الأربعة « إنه يتحدث عن الغريب » . دق قلبه . رأى الست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها المتصل فجأة . يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يقول بعض معارف عبد الرحمن بعد سنوات ، ذهب ولم يعد ، قال قناوى الفدائى ، إن الغريب جاء مع الحاج حسن السـودانى متعهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شىء المؤسف أنه

توكل على الله ، ذهب بطلا فى معركة قسم الأربعين ، عينا شفيق أفندى تحيطان بسرعة بالوجوه ، بكل ما فى القاعة ، بطاطين رمادية ، صناديق ذخيرة فارغة وزمزميات مياه ، مكان يأوى مقاتلين ، مكان اقامة مليئة بالحذر والترقب ، لوحة ملونة ، فارس يرتدى خوذة ، يشهر حربة ، فوق رأسه كتابة واضحة « أبو زيد الهلالى » آخر تنفيذ منذ حربة اختفت بقاياه مع اللوحة الممزقة ، لابد أنها تنتمى إلى أصحاب الشقة الأصليين . ربما لم يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومى هنا .

يقول قناوى إن الغريب بدا حائرا عندما جاء إلى قسم الشهداء مع الحاج حسن صاح كثيرون إن اليهود قادمون إلى كوبرى الزراير . بدأ الملازم حسن ضابط الصاعقة فى توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب لقناوى « فين كوبرى الزراير ؟؟ » .

أشار قناوى إلى اتجاه المكان ، سأل . .

« تعرف تضرب نار ؟؟ » .

« ممكن أعرف » . .

ناوله قناوى رشاشا وثلاث قنابل خارقة للدروع ، نظر الغريب إلى السلاح . هذه الدهشة الخفيفة والحذر تجاه السلاح لدى من يلمسه لأول مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقبض أضغط الزناد .

تتزايد الحركة بين الناس ، كوبرى الزراير ، كوبرى الزراير ، قال الغريب . .

(آجى معاكم ؟) .

رآه قناوى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمائن عند الهويس ، لم ير قناوى الغريب لكنه عرف أخباره من الذين حاربوا عند الكوبرى الزراير .

سأل شفيق أفندى عن إمكانية اللقاء بأحدهم . نظر قناوى الى زملائه . نزل إبراهيم إلى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل فى أجازة بعد ، تساءل شفيق أفندى عن حسن هذا ، قالوا إنه ضابط الصاعقة ، وأنه حارب عند كوبرى الزراير ، وصباح اليوم التالى أكد الملازم أول حسن عمار ، إن الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كوبرى الزراير أثناء توجه الكمائن إليه ، لم يسأل خائفا أو مترددا . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقدم ، يقف بطوله فى مواجهة الدبابات مخالفاً كل القواعد التى يتخذها المشاة عندما يتصدون للدروع ، كان يريد الاقتراب إلى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشىء ما . زعق بدت حركة ذراعه عندما القى القنبلة الأولى ، انفجر الجسم المعدنى ، تصاعد دخان كثيف له قوام . أزت رصاصات

البنادق الخارقة فى اتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة ، بدا الاضطراب على حديد الدبابة الثانية ، دار المدفع الرئيسى إلى الشمال ، ارتد مكانه ، بدأ الجسم الضخم مرتبكا قبل أن تمتد ذراع الغريب فى استقامة إلى الخلف ، القى القنبلة الثانية ، قال إن آخر مرة رآه فيها بين الدبابة الأولى والثانية ، غطى الدخان كل شىء ، أصدر أوامره بتغير أوضاع الكمين . بعد انتهاء المعركة عادوا إلى مكان الدبابتين المحطمتين ، لم يجدوا جثته قال إنهم ذهبوا بعد وقف اطلاق النار لأن الحركة استحالت فى المدينة يومى ٢٤ و ٢٥ بسبب الرصاص الطائش ، قال إنه سأل عنه ، من هو ، ما اسمه ، لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعق . . يا مجدى . . فهل هو اسمه . خاصة وأن كل أفراد الكمين معروفون بالاسم ولا يوجد منهم مجدى لكن الذين تبقوا من الرجال لا يعرفونه إلا باسم الغريب صاحب الحاج حسن السودانى . .

ملحوظة أخرى ...

قام الأستاذ الجواهرى فى اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بهيئة الشئون الصحية أثر اكتشافه معرفة قديمة ربطت بينهما يوما ، وبالطبع ورد ذكر الأسباب التى أتت بالأستاذ الجواهرى ، قال الموظف إنه لا يعرف شخصا حارب فى المدينة بهذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الاهالى عن سائق لورى قطع عليه الطريق وحارب عند كوبرى الزراير ويقال انه واجه

الدبابات واقفا ، حتى إنه اعتلى احداها ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها ، وهنا قال الأستاذ الجواهرى إنه جاء خصيصا من أجل هذا الشاب ، تمهل صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :

« إنه من عندنا واسمه عبد الرحمن محمود . .

فى الليل حكى الأستاذ الجواهرى لطايل أفندى وشفيق أفندى ما سمعه ، وهنا أبدى الشابان حماسا وقالا إن هذا دليل واضح . لكنه هز رأسه حائرا وقال . . ربما ولكن من يثبت هذا ؟؟

من تقرير طايل افندى ..

« واجمع البعض على أن الأهالى سحبوا الغريب فى نفس ليلة استشهاده ، ودفنوه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى إلى شركة شل ، وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء إلى مقبرة واحدة داخل السويس ، وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ، مسحوا دمعا جرى ، وجدوا الجثمان على حاله ، مفتوح العينين ثيابه لم تبل ، قدماه حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن ، بدت الدماء فوق تميصه طرية كأنه أصيب منذ لحظات . . . . » .

فى روايات أخرى أكد البعض أن الشخص الذى نقلوه من المدفن غير الغريب ، والصحيح أن الثانى انفجرت دانة فوقه تماما ولم يعثر له على أثر ،

وأكد هؤلاء إن المكان الذى استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيما بعد خلال الحصار . .

قالت امرأة عجوز تعيش بجوار كشك الصحف الخاص بالحاج السودانى إن الشاب الغريب اسمه مخلف رأته مرارا يجىء إلى الحاج ، قالت إنهما ذهبا إلى كوبرى الزراير وحاشا اليهود عن دخول البلد وماتا ، قالت إنها ذهبت إلى الكوبرى ، قالوا لها ارجعى يا وليه لأن المكان على مرمى النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بالحاج عشرة عمر ، أما الشاب فحنت اليه ، فالت إنها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه فى مكان موته ، قالت إن مخلف تحدث إليها كثيرا ، سألها مرة . لماذا لم تهاجر ، قالت إنها لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن ابنها فى القاهرة ، متزوج وعنده اربعة أولاد ويعيش فى القلعة ، سألها لماذا لم تذهب إليه ؟؟ قالت انه لا أحد يطيق أحدا فى هذا الزمان . بدلا من أن تثقل عليه وعلى امرأته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك ، قالت إن مخلف حن عليها واعطاها خمسة وعشرين قرشا ، وكلما جاء اعطاها حاجة ، عندما تجولت فوق كوبرى الزراير اخبرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن عصفورين لونهما أخضر ، ينزلان فجر كل يوم ، صوتهما أحن من الحنين ، وأطرى من قلب الأم ، يحومان قليلا ويختفيان فجأة كما ظهرا فجأة ، لم يخلفها ميعادا . . » .

وقمت بتوجيه سؤال إليها عن الاسم الكامل الشاب ، قال إنها لم تسأله أبدا عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمته بينها وبين نفسها « خلف » خلف ابنها الأول الذى انجبته منذ أربعين سنة ومات بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب . .

من حديث سوسو الحلواني الى شفيق افندى

. . سأل شفيق أفندى بالحاج ، هل رأيت الغريب عند الهاويس بعد معركة كوبرى الزراير ؟؟

قال إنه لا ينسى أبدا ، لو أن الله مد فى أجل البمبوطى كفته والباشجاويش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لأنه وصل إلى الهاويس معهما ، قال إن الجو بدا مقلوبا ، وكأن جزءا من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فثقيل كدخان الجبر ، ما لفت نظره إليه ، اتخاذه أو ضاعا تعرضه لاقصى الخطر ، حتى قال البعض إن الغريب القادم محجب . مثل هذا لا ينسى أبدا . .

إن شفيق أفندى يرغب فى توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلوانى سوسو يحملق إلى الأرض ، نسى تماما وجود الأفندى القادم من مصر ، سهم فجأة كنزول ليل مباغت ، لم يستطع شفيق أفندى أن يخدش صمته ، ووصد دمعات تتسلل على مهل من عينى الحلوانى سوسو . .

ملحوظات أخيرة ..

اجتمع الأستاذ الجواهرى فى مساء اليوم السادس بعضوى اللجنة ، قدم طايل افندى تقريرا بدا أثناء تلاوته منفعلا ، قال فيه إن باشجاويش شرطة من قسم الأربعين وامرأة عجوزا من الجناين إلى المدينة عندما هاجمها اليهود وقتلوا أولادها واثنين من احفادها ، وبائع قلل متجول ، وعطارا من حى زرب ، وصياد سمك يمتلك قاربا ، أكدوا أنهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قارىء قرآن عجوز انتدبته وزارة الأوقاف من المنوفيه إلى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد إنه التقى كثيرا بهذا الشاب ، لا يمكن أن يخطىء لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم ليعرف كل منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدأ كثير الحركة لا يهدأ ، لا ينام فى مكان واحد ، بل نادرا ما رآه البعض نائما ، كل من رآه شاهده مستيقظا يؤدى عملا ، فى الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب إلى بور توفيق أكثر من مرة . حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آبارا للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلاة مرة ، كما أنشد بعض المواويل فى سهرة أقيمت خلال الحصار ، تبرع بدمه مرات لأن المدينة عانت نقصا فى الدم . يقال إنه تسلل مرات إلى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار . .

أثناء توغله رسم خرائط لمواقع العدو ومرابض مدرعاته وأنواع مدفعياته ، وارسلت هذه الخرائط إلى مصر بطرق خفية ، وأكد عدد من الأهالى أنه خرج فى قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الالغام فى الخليج . لكنه دائما يجىء إلى المرسى الراكد . يسأل « فين المراكب » يحرك المياه بضربات المجداف ، واقسمت امرأة من حى الأربعين إن الغريب القادم من مصر جاءها عندما أتاها المخاض فى الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة لبعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقتها قبل الحصار وبقائها وحيدة . بيديه انهى ولادتها العسيرة ، تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب مقهى تهدم فى الحرب إن الغريب أصلح عربة لورى معطلة وقادها عبر شوارع البلد مرتين .

أصغى الأستاذ الجواهرى بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التى نزلت على طايل أفندى حتى صار يخرج من الفندق فى السابعة صباحا يستقصى ويلتقى ويجرى المقابلات ليعود فى المساء . حتى أنه جمع معلومات دقيقة عن ملامح الغريب وطريقة مشيه ، وسجلا بالأسماء التى أطلقت عليه من الأهالى . لم يبد الأستاذ الجواهرى انفعالا . قال إنه أمر مشرف للمؤسسة أن تعلن استشهاد أحد ابنائها فى السويس . لكننا لم نعثر على أثر ، لم نجد له قبرا ولم يجمع اثنان على رواية واحدة . ثم ما هو موقف

العهدة سيارة النقل والبضاعة ، وباعتباره قضى عمرا بأكمله فى خدمة الحكومة فما يهمه أولا الاطمئنان على أموال المؤسسة .

يصغى شفيق أفندى صامتا . صباح اليوم رواده يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . اسرع الخطى . لم يلحقه وبقى وحيدا فى هدوء شتوى يخيم فوق انقاض البيوت . ورائحة البحر فى الخليج القريب ، حتما ستجىء لحظة يلتقى فيها با لغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحكى له طويلا ، انه على وشك اتخاذ قرار بينه وبين نفسه ، أن يبقى وقتا إضافيا ولن يبالى بالأستاذ الجواهرى . طايل أفندى يقول إنه طلب زيارة الأسطى عبد الرحمن مضى إليه مع عدد من شبان المدينة ، قرأوا عليه الفاتحة ، ماذا تبقى اذن لتقتنع المؤسسة بموته وتمنحه حقوقه ، يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يكرر بهدوء إن هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذى يثبته . . أين الأدلة ؟؟

١٩٧٤

طيـــن

.. خبطة محكمة ، بعدها هوت ، ضاعت قدرتها على الطنين ، أول حصيلة اليوم ، خطأ فوق الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت ، استطالت حشائشها ، غطت الجدران ، لحية كثيفة خضراء لم تهذب ، ضجة بمحرك سيارة ، يصغى ، يهم قليلا ناحية الباب ، يتزايد صوت المحرك ، إذ تمرق العربة أمام البيت ، يضع حدا لتساؤله ، أهى عربة جيب ، أم نقل ؟؟ كثيرا ما يبدأ رهانا مع نفسه ، أراهن أنها عربة جيب ، لو خسرت سألف الحديقة سبع مرات ، فى الليل يغطى رأسه بطاقية الصوف . أرسلتها اليه ابنته من المانيا . . . « نسجت لك يا أبى هذه الطاقية قبل دخول الشتاء ، لتدفىء رأسك فى ليالى بور سعيد الباردة ، أما الجوارب فأرجوك ألا تهمل ارتداءها ، طالما تشعر ببرودة ، لن يأتيك النوم ، واظن . . . » ماذا تظن ميسرة ابنته ؟؟ صحيح عمره سبعون عاما ، لكنه أكثر نشاطا من زوجها ،

فى السادسة والنصف تماما يقوم من نومه ، طوال نهاره ، يقضيه هنا فى حديقة البيت الأيام الأخيرة غيرت عادات قديمة ، لم يعد يخرج للتجول قرب مبنى هيئة القناة ، ينظر قبابه البيضاء وصوارى اللاسلكى والبحارة الاغراب يتحركون فوق سفنهم الراسية والقوارب الصغيرة وجنود الجمرك وراكبى الدراجات من عمال الترسانة البحرية فوق معدية بور فؤاد يرقب ترقرق أمواج البحر ، بيوت المدينة مستكينة وادعة ، تنضح رطوبة ، تنوء بهجر أصحابها ، لا طعام يطهى فى طوابقها لا صيحات أطفال تستقيم الشوارع ، فراغها حاد كأسوار سجن ، لم يعد يتجول فيها ، يصغى وشيش سعف النخيل المرشوق فى شوارع الحى الأفرنجى ، يستند إلى الفراغ ، طوال النهار يقضيه هنا ، فى حديقة بيته ، ممسكا منفضة من البلاستيك زرقاء ، أداته فى تنفيذ قراره الذى اتخذه من فترة ، الآن ، يسرى طنين هادىء واثق ، يتصلب جسده فوق المقعد ، لا يصغى إلى تنفس البحر النهارى ، يقشعر جلده انتظارا ، يدور بعينيه حوله ، يحكم أمساك المنفضة ، يبتعد الطنين ، لن يعاود الاضطجاعة الهنيئة فوق المقعد ورحيله بعينى عقله إلى ابنته على الشاطىء الآخر من البحر ، كأنها ترقبه الآن ، تبادله النجوى ، سيظل منتبها يعرف طريقها ، تدور ، تدور ، تضيق حلقات مرورها بالقرب منه ، تبتعد فجأة ، صمت المدينة يضخم الطنين ، فجأة ، ها هى فوق جلد ذراعه الأيسر ، تستند إلى ساقيها

الأماميتين ، تمد خرطومها ، تمارس طقوسا غامضة ، لغتها غير مفهومة ، لا يدرى كيف حطت صامته ؟؟ ربما هوجم باثنتين فى وقت واحد ، أى خطة ينفذها لصد الهجوم ؟؟ يوش البحر ؛ يرتد موجه ، آه . . راحت ، بلا طنين ، لن يهدأ ، لن يغفو ، طوال أيام أربعة كاملة ، لم تنجح واحدة فى ملامسة جسده ، والابتعاد حية ، أو طارت يتكدر يومه ، يبدو البحر الشاب البهيج مغارة يأوى اليها الهلاك ، أيامه الطويلة خواء مفرغة من الأخبار والأحداث ونذر المفاجآت ، ترتعش أطرافه ، يهاجمه أرق لم يأته قط فى ليالى نشاط الطيران المعادى ، بأى مشاعر تتلقى ابنته نبأ هروب مصدر الطنين منه ، فشله فى إدراكه لن تسأله عما إذا كان يحرص على شرب اللبن قبل نومه أم لا ؟؟ . . دائما أراك يا أبى ، أعيش معك أول النهار عندما تصحو من نومك ترتدى ثيابك كاملة ، تطمئن على صلابة ونظافة ياقة قميصك ، تماما كأيام ذهابك اليومى إلى المستشفى ، تمد يدك تلامس ذقنى ، تميل ، تقبلنى ، عند بلوغى المرحلة الثانوية ، اضفت عادة جديدة ، اتجاهك إلى صورة المرحومة أمى فوق الجدار ، تنحنى ، تلفظ تحية الصباح وكلمات أجهلها ، لم اسمعها قط ، لم تبح بها ، فى كل يوم ، عندما أعرف أن الصباح يضم بور سعيد ، أشعر بيدك تلامس ذقنى ، أثق انك تداعب صورتى ، ربما توجه ألفاظا دقيقة إلى ، تقبل ابنى عادل ، عادل يا أبى يتحدث الألمانية بطلاقة ، لكننى أطمئنك، أنا حريصة جدا

على تعليمه لغة موطنه ، أما احمد فمشغول فى تحضير الرسالة ، استعدادا لمناقشتها فى . . . « لو أفلتت واحدة ستحزن ميسرة ، أربعة أيام طرد العشرات ، هوى بضربات قصيرة ، محكمة ، عندما يشرع المنشة تتخلى الرعدة عن يده لن يهدأ اليوم إلا إذا وضع حدا لهذا الطنين ، خطابات ميسرة تدفق التأثر إلى كيانه ، الشىء الوحيد المنتظر من العالم البعيد ، يوميا يتعجل مجىء ساعى البريد ، لو رآه الآن لن يتخلى عن ترصده ، لو زاره أيضا ضابط الموقع القريب ، هادىء الملامح ، قليل الكلمات ، يجىء يوميا ، يستند إلى السور الخشبى ، يعرف الدكتور غندر منذ شهور ، فى البداية كعادة الصحفيين ، والزائرين الغرباء ، تساءل عن السبب الذى جعل الدكتور لا يهاجر يوما واحدا ؟؟ حتى عندما اختنقت المدينة بقلة المياه العذبة ، حاصرها الطيران ، قطع شرايين الوصل ، خرج معه الدكتور وقت غروب ، توقفا أمام بيت خشبى من طابقين ، يستند إلى ثلاثة أعمدة طويلة تغوص فى الحجرة ، يستقر منكمشا بين عمارتين شاهقتين يتوارى خجلا ، بابه مغلق يقفل حديدى ضخم ، طلاؤه أخضر ، فوق درجات السلم الضيق برقت عينا قط ، أشار الدكتور إلى الطريق ، « قبل رحيلى إلى أوربا لاتعلم الطب ، سهر أقاربى هنا مع أهالى الحى ، تزوجت ابنة عمى ليلة سفرى ، أذكر رنين أوتار السمسمية ، ورقصة البمبوطية وصياح الأحبة ، لعلعة الزغاريد ، لون الرمال الأصفر المفروش أمام البيت »

إصغى إلى وقع خطواتها فى فراغ يلمع فيه الأسفلت ، وهواء مبلل بملوحة البحر ، طعم اليود ، قال إنه يعرف بيوت المدينة بيتا بيتا ، قبل التهجير يستطيع كشف الغريب فى قلب الزحام ، عندما أغلقت البيوت بدأ يطوف فى الشوارع ، حتى فى أوقات الاشتباكات ومجىء الهلاك المحلق من الشرق ، توقف ، « هل ترى هذه العمارة ، أضخم مبنى فى بورسعيد ، أنت الآن فى الحى الأفرنجى ، قال إنه يعلم خلوها من السكان ، فى أول ليل بعيد ، رأى ضوئا يلمع فى نافذة علوية ، نور وحيد معزول فى أقصى الطابق العاشر مصلوب كضوء فنار ، لكنه ثابت لا يدور ، أخذته حيرة ، ترى من بقى هنا ولا يعرفه ؟؟ من ؟؟ رأى باب العمارة مغلقا بلا قفل ، تراجع ، عاود النظر ، تبدو المسافة نائية ، لو رأته ميسرة الآن ستصبح غاضبة ، تحيطه بذراعيها ، أما المرحومة فحتما تراه ، ترعاه وتصون شيخوخته من خدش ، منذ رحيلها الأبدى يوقن من ملازمتها له ، تراه ولا يراها ، تدرى ما سيجرى له ولا تستطيع أخباره ، رجف بشفتيه معتذرا ، لعلها تقبل طلوعة ، لن يتراجع ، بدأ طلوع السلم ، المصعد هامد معلق بين الطابق الثانى والثالث ، وحشة البيوت الخالية ، الأبواب جهمة فيها صد ، شاخت قبل الميعاد ، جفف عرقه عند الطابق الثامن ، أخيراً ، يبدو الضوء من وراء زجاج الباب ، قال للشاب ، أنا الدكتور غفور طبيب المستشفى الأميرى سابقا والمحال على

المعاش حاليا ، أنت لست من أهالى بورسعيد ، من أنت ؟؟ دخل ، فراغ مثقل برطوبة ، غرفة واحدة مضاءة ، ما تحويه سريرا حديديا صغيرا ، صحيفة فوق الجدار تدفع الجير عن ثلاثة قمصان وجاكته ، بنطلونين وبلوفر أسود ، بدأ الشاب مرتبكا ، جلس الدكتور فوق السرير ، ممسكا قمة عصاه براحتى يديه ، قال الشاب إنه من أهالى بورسعيد لكنها المرة الأولى التى يجىء إليها ، عاش عمره فى مصر درس الهندسة ، والآن يجىء ليعمل فى السنترال ، الشقة ملك لعمه ، أوصاه بالتردد عليها ، اعجبه الموقع الشاهق من الشرفة البحرية ، أطال الدكتور سهره ، تحدث إلى المهندس الشاب عن المدينة ، بساطة ورقة الحياة فيها ، لو جاء إليها قبل العدوان لأحبها الآن أكثر ، تعقب أصول الشاب ، استقصى افراد عائلته ، مضيا إلى الحى الأفرنجى ، إلى حى المناخ ، هنا سكنت عائلة فلان ، وهذا بيت فلان ، وهنا كانت تسكن عائلة استشهد كل أفرادها عام ١٩٥٦ ، بدا الشاب وكأنه يتعرف إلى المدينة لأول مرة ، أشار الدكتور الى حفرة قديمة ، هنا سقطت دانة مدفعية فى بداية الاشتباكات ، فتكت شظاياها بثلاثة عشر إنسانا ، فى الطريق المجاور خلال الحرب العالمية الأولى ، اغارت طائرات ألمانية كأقفاص الفراخ ، رمت قنابل ، أحدثت كل منها فجوة فى حجر طبق كبير ، توقفا أمام حلوانى جيانولا ، بدا الدكتور ساهما ، تبحر نظراته فوق بحر من الحزن بلا مراسى ، قال . .

هنا فى الأماسى جلست مع أم ابنتى ، بالضبط هذا موقعنا المفضل ، نتأمل وجوه الغرباء فى الصيف ، فى الشتاء نجلس بـالداخـل ، صحبنا دائـماً مهندس يونانى اسمه ديمترى ، فى أوقات فراغه يصنع نماذج دقيقة لبواخر بهيجة الالوان ، يقسم لو وضعها فى البحر لعامت ، عرفت مقصدها إلى بلاده رأسا ، بدا الدكتور خفيفا نشطاً ، أمسك كوبا زجاجيا . . بالتأكيد شربت أم ابنتى من أحدى هذه الأكواب ، يقطب حاجبيه ، كل شبر هنا اقتطع من عمره مقدارا ، يقترب الطنين ، يخلق موجات فى أذنيه ، هذا طنين ساخر لم يعرفه من قبل ، لا يرى مصدره ، يهـزا بقراره ألا تفلت واحدة قط ، ألا يدع الطنين يمرح فى خواء المدينة ، ينظر حوله ، يقشعر جلده ، أبداً ، لن تحط فق أى جزء من ثيابه حتى ، يتزايد الطنين فجأة ، خط حاد مختصر ، خروج دانة من فوهة مدفع ، يضرب الفراغ بالمنشة ، أبداً لم تهو ، بالأمس فتك بأربع عشرة واحدة ، أما هذه فتبدو وكأنها تعد بالثأر لكل ضحايا جنسها السابقين ، يخفى الصـوت الحاد اللزج ، لن يغادر الحديقة ، سيبقى كما تعود دائما جلوسه النهارى ، سيرصد حركتها ، يجيئه الآن الطنين رفيعا ، يعرف أنها تدور فى خط دائرى واسع ، ستقطعة وتتجه رأساً إليه ، آه ، ضرب ساقة بالمنشة ضربة قوية أمالت جسمه إلى أمام ، نظر ، أبدا . . كتلة سوداء صغيرة الطنين مستمر ، أى نهار هذا ؟؟ لم يعد يسمع مروق العربات ، وحشة المدينة لم تدفع بوخر إلى قلبه كهذا

الطنين ، خطابات ميسر الرقيقة ، برقيتها إليه عشية عيد ميلاده ، قبل ميعاده بيومين ، ذهب إلى ناظر محطة الأتوبيس ، رحب به ، طلب منه تكليف أحد سائقيه بشراء تورته فاضرة من دمياط ، ليلة عيد ميلاده ، حمل التورتة إلى البيت ، خفيف الخطى ، لا ينقصه إلا انتظار زوجته ومستر ديمترى وابنتاه ، رص الشموع ، فى المساء ارتدى الحلة السوداء والبابيون ، نزل إلى صالة البيت ، أضاء مصابيح النجفة كلها ، أصغى إلى إيقاع السكون الموحش ، وقف طويلا أمام الصورة المطلة عليه من عالم آخر ، بأصابعه المهتزة عود كبريت رأسه حمراء اللون ، أضاء الشموع ، ضغط زر النور ووقف ممسكا عصاه ، تزايد وشيش البحر القريب ومروق الرياح انحنى بهدوء ، استجمع قواه المشتتة عبر سنين بعيدة ، نفخ بقوة ، أطفأها كلها ، قبل صورة امرأته ، ميسرةوحفيدة عادل ، على مهل يجلس فى المقعد الكبير ، ينظر إلى الشموع المطفأة فوق التورتة الكبيرة ، عندما جاء ضابط الموقع الشاب فى صباح اليوم التالى ، رجاه أن يحملها إلى رجاله ، تورتة كاملة لم تخدش ، السكر فى دمه يمنعه من تذوقها ، أمراض العمر كلها وأوجاعه تفاجئه الآن ، تدهمه كموجة عاتية ، تهدم صفا من الأبنية ، يعود الطنين قويا حادا ، آه . . تمرق بجوار أذنه ، يضرب الفراغ بالمنشة ، يسقط فوق ركبته ، تنبىء بداية اليوم بمصائب وآلام ، اتسخ بنطلونه تلفت حوله ، لم يره أحد ، الاهتمام بهيئته لن يشغله غن متابعة

الجسم المحلق اللعين ، فى البداية لاح الأمر تحديا طريفا يقطع به الوقت ، يغالب قسوة اليوم والوحشة ، الآن . . لن يأوى إلى البيت ، سيطارد منبع الطنين ، بالضبط . . بالضبط . . ها هى . . مرت أمام عينيه ، لا تجرؤ على الاستقرار لحظة فوق جسده ، أو ثيابه ، باغتته رعشة قوية ، تصور لحظة أنها تستقرت فوق زجاج النظارة ، تنهى طيرانها فى خط مستقيم ، تدور متمهلة ، لا يلمح التفاصيل ، لا تختلف ملامحها العامة عن أية واحدة فتك بها ، يتقدم خطوات ، يتتبعها ، يبدو مسارها واضحا ، ببطء ، تنزل ، تستقر فوق السور الحديدى القريب من الكرسى ، . . ثانية واحدة ، جزء من ثانية ويستعيد صفاء جلسته ، يستعد لا ستقبال الضابط الشاب عندما يأتيه باسماً بعد الغذاء ، يخرجان إلى طرقات المدينة العذبة كأبيات فى قصيدة حزينة ، بينما يجىء الغبار المسائى من ناحية البحر ، ضربة واحدة ويروق اليوم كله ، بالضبط . . تمد خرطومها اللعين ، من أى عالم موبوء جئت ؟؟ فى صمت ، على مهل ، يرفع ذراعه ممسكا بالمنفضة إلى أعلى . . . »

١٩٧٢

ريح الجبـــل

.. ها هى أيام يناير الأخيرة تولى ، ولا يزال فوق صخور عتاقة ، بين مدقاته الضيقة ، المتعرجة ، التى تشرف فى بعض الأحيان على هاوية غير متوقعة ، بين كهوف عرف عمق بعضها ، لم يتوغل فى العديد منها لا متدادها مسافات بعيدة ، يقل الهواء داخلها فيثقل فراغها على صدره ، يجعل خطوه مضطربا ، كما تجعل الروائح الثقيلة للهواء كثافة ، روائح بقايا الوطاويط ، الفئران الجبلية ، الثعابين ، وحيوانات صغيرة ، دقيقة الحجم ، تندفع عبر تلك الانفاق الطبيعية المجهولة ، قد يجد نفسه بداخلها عرضة للحصار المفاجىء ، المباغت ، الذى لا مهرب منه ولا فكاك قد تقوم قنبلة دخان بالعمل كله او كومة أعشاب يحرقونها عند الفوهة ليختنق ، بعض هذه الكهوف يمتد عدة كيلو مترات ، تحفل

بتيارات هوائية مجهولة المصدرى داخلها ، بعضها ساخن والآخر بارد ، يقولون إن هذه الممرات تتفرع وقد تؤدى إلى عدة منافذ للكهف الواحد ، بعضها قرب القمة والآخر يلامس السفح ، يؤجل محاولة الكشف ، فى أصعب أيامه لم يأو إلى أى كهف حتى ولو بدأ كغرفة مهدتها الطبيعة ، لم يضع أى جزء من عتاده الضئيل داخل إحدها لأنها هدف مستمر للتفتيش ، تثير الشك أكثر من حفرة على جانب مدق أو تحت صخرة معلقة إلى جرف ، فى الليل يتحول الجبل إلى كهف كبير بلا جدران ، خاصة عندما يأفل القمر وينأى ، تندمج أطراف الصخور . تضيع كل التفاصيل ، تترددِ مئات الأصوات مجهولة المصدر ، عواء ، صيحات ، حيوانات لا يدرى إلى أى جنس تنتمى ؟ أزيز حشرات دقيقة ، مضيئة ، لا تنشط إلا فى ليالى السواد الكامل .

سيقول إنه لا شىء يبعث الرهبة برغم ذلك الا نزول هذا السكون الأجوف ، الكلى ، فى فترة ما قبل المغيب بدءاً من شحوب العصر ، يبدو الجبل مقبرة للنهار ، يتسلل سكون موجع من المسام إلى الدم ، ينكفىء بالذكريات إلى الأيام المولية ، يوحى بضجيج المدن البعيدة ، بإيقاع الحياة الآمنة ، حيث يستيقظ الإنسان بعد إغفاءة العصر ، يتناول شايا ساخنا ، يستحم ، يرتدى ملابسه متمهلا قد يصغى إلى أغنية منبعثة من الراديو ، يحيى أمة أو أمراته أو أخواته أو يسأل أو أطفاله عما يحتاجون إليه ،

ما يرغبون فى أن يعود إليهم به ، على السلم تصل أصوات البيت ، خادمة تقول . . يا ستى ، صوت طبيخ فوق موقد ، فى الشارع يحيى الجيران ، فى المقهى يلتقى بالأصدقاء .

سيقول لزملائه إنه احتمل حتى الآن اربعة وتسعين يوما ولا يدرى كم سيمر عليه إذا طال الصمت ؟ سيقول إنه رأى الثلج فى الأعالى ، بخبرته هنا حسم رهانا دار يوما بين سليمان الحلبى والبرق فى معسكر التدريب . تساءل سليمان الحلبى ، هل ينزل الثلج فوق عتاقة ؟ قال البرق ، طبعا لا . . وهل تنزل ثلوج فى مصر ؟ هنا أكد سليمان نزول الثلوج فى الأعالى ، لو دقق الواقف عند أطراف السويس سيرى الثلج ، نفى البرق ، لوح سليمان الحلبى بجنيه كامل ، قال : هذا رهان بينى وبينك ، سنتأكد عندما نطلع فى دورية إلى عتاقة وهذا منى مقابل عشرة قروش منك ، لم يأت أحدهما إلى عتاقة ، سيقول لهما أنه رأى تجمد المياه فى الشقوق ، لا ينزل الثلج من السماء ، لكنه يوجد إذ تنخفض درجة الحرارة انخفاضا مريعا بعد نزول المطر .

سيقول إنه لم ينم فى أيامه الأولى بالجبل ، أربعة أيام ، يذكرها كأنها يوم واحد ، متصل ، فى البداية احتاج إلى تأكيد كل معلوماته عن الجبل ، إلى استطلاع الموقف ، استكشاف المكان ، اصلح اماكن الايواء بالجبل طبقا للظروف الطارئة ، انه خبير بعتاقة ، لكن منذ صعوده إليه والأرض

تكتسب قيمتها ليس لمناعتها الطبيعية فقط ، انما ببعدها عن العدو أولا ، وصلاحيتها للعمل بالنسبة إليه وليس بالنسبة لأى انسان آخر ، قرر أن يبحث عن عدة اماكن تصلح لنومه وآخر يخبىء فيه مئونته القليلة ، مكان يدفن فيه نفاياته ، آخر يدفن فيه البطاريات الاحتياطية للجهاز ، ومكان يمكن منه أن يدير الجهاز يرسل اشاراته ، قرر استطلاع المدقات الصعبة التى لا تصلح لمشى العدو ، الممرات الجبلية التى تتخلل الصخور ولا تسمح للشخص الواحد الا بالمرور زحفا أو بالجنب ، الأماكن الصالحة لهبوط الهيلوكبتر وغير الصالحة ، عندما نزل الليل بسرعة أجل جولته إلى فجر اليوم التالى .

سيقول إن الرياح بدت غريبة ، هبوبها على ارتفاعات مختلفة وسرعات متعددة ، اصطدامها بالمنحنيات وأطراف الصخور والحجارة الضخمة المعلقة التى انفصلت عن الجبل فى زلازل سحيقة ، دورانها بالحفر ، ارتدادها المفاجىء ونفاذها إلى أعماق الكهوف والفتحات وخروجها من أماكن غير مرئية ، تحدث أصواتا متداخلة لم يعرف مثيلا لها فى جميع المناطق التى ارتادها فى سيناء أثناء عمله خلف الخطوط ، هنا لا يستطيع أكثر البشر خبرة معرفة اتجاه الريح أو منابعها ، من كل شبر تجىء ، إلى كل مكان فى العالم تمضى ، تسافر ، تعود ، تتنوع ، صغير متصل كاشارات جهاز اللاسلكى العاجلة ، سرب من طائرات مقاتلة

يهوى من السماء مرة واحدة ، أبواق نحاسية ، دفوف ، عويل نساء حزانى ، جنازة كونية ، أثناء التدريب حذرهم القلعاوى ، قال ان وقتا ينبغى أن يمضى حتى يتبين الحقيقى من الزائف ، وعندما تستفز غزيرة القتال إلى أقصى حد يختصر هذا الوقت إلى لحظات ، اقترح القلعاوى عليهم أن يتخذ كل منهم اسما لا يعرفه إلا قلة قليلة ، يبدأ به أى نداء يوجه إليه أو يرسله ، فى الليل ابتهج زملاؤه قالوا إن كل الناس لا يختارون أسماءهم ، يشب كل انسان ليجد اسمه مقدرا قبل أن يعرف ، لا رأى له فيه ، إنما هم ستتاح لهم الفرصة من جديد .

سيقول لهم عندما يخلو إليهم ويحكى إن كل شىء خلف الخطوط يبدو كأنه يسمع أو يرى لأول مرة ، حتى لو طرق الإنسان نفس الدرب عشرات المرات ، المفاجأة محتملة ، متوقعة ، دائما ، كامنة فى الجهات الأربع الأصلية ، المفاجأة تلغى الشعور بالعادة ، من يدرى منذ ساعة خلا الطريق ، ربما جاء العدو ونصب كمينا ! ، لكن هنا فوق عتاقه يختلف الأمر ، لكل ليلة جبلية ملامحها ، لكل ساعة أصواتها ، يتغير الطقس قبل قدرة أى جهاز على التنبؤ ، خلال النهار يبدو الدفء مستقرا ، يكفى أن تجىء سحابه لتحجب قرص الشمس الذى يبدو من وديان عتاقة أكثر بعدا ، على الفور تتخذ البرودة طريقها إلى عظامه ، يزيل غياب الشمس حاجزا غير مرئى ، تطبق الظلال ذات الملمس على صدره كانهيار خيمة أو

أطباق البحر عليه وغوصه بلا توقف ، تضاعف الظلال بعد القمم ، تبدو أطراف الجبل مرسومة على صفحة السماء غير المستوية ، يشيخ النهار فجأة ، تدركه وحشة الساعات الأخيرة من النهار ، تدركه هذه الوحدة التى تباغته مع سكون النهار الأخير ، عندما تشق جدران الجبل سدودا فى وجه الفراغ ، يدرك بغريزته حركة الحيوانات والزواحف غير المرئية ، تململها فى مراقدها ، استعدادها للخروج إلى عالمها الليلى ، يتساءل عما سيأتى به الظلام ؟ ، هناك خلف الخطوط كل ما يحيط به عدو ، هنا فوق عتاقه يمكنه رؤ ية السويس ، إذا دقق النظر يرصد الدخان المنبعث من بعض المداخن ، حركة العربات فى طرقاتها ، العمارة التى اتخذها الوحدة مقرا لفترة قضى بها الأيام الحلوة مع الرجال ، أدهم الشرقاوى ، سيف بن ذى يزن ، الفتى مهران و البرق ، والصاعقة ، موج البحر ، أحمس الأول ، البراق ، خلال حصار العدو للمدينة لم يعمق شعوره بأن الأرض محتلة ، بعكس المسافات القصية التى يقطعها داخل سيناء التى يتواجد فيها العدو منذ سنوات ، فى عتاقة ، اعتبر وجودهم عارضا ، رصدضيقهم ، إن وجود السويس القريب منه يضاعف وحدته الجبلية بقدر ما يؤ نسه ، كثيرا ما قطع دربا وعرا ليصل إلى الحافة الجنوبية المطلة على المدينة خلال الحصار ، فى الليل رأى قبضات ضوء تتوهج لثوان فوقها ، بدا بعضها كبقايا شمعة صغيرة داخل فانوس غير مرئى ، من النيران المنبعثة حول

فوهات المدافع أمكنة تحديد مواقعها استطاع تمييز لهب المدفـع من طلقة الفليرز المضيئة ، تختلف عن مشاعل الطائرات التى تبدو محاذية له أثناء اشتعالها فوق المدينة ، تراقص لهبها على الصخور ، ضوء باهت استوعبه عتاقة ، محاولة فاشلة لفقأ عين الليل ، أوشك على نسيان نفسه مرات أثناء تأمله المدينة ، عندما سدد المنظار المقرب مقتحما الفراغ النهـارى بعينيه تحولت المكعبات الصغيـرة إلى بيوت واضحـة الملامـح ، ميز مـدرجات الاستاد ، مبنى شركة شل ، عندما وجه المنظار صوب الأرض القريبة من الخليـج رأى أنابيب مصـانع الـزيتية الملتـوية المتفحمـة فـوق الأرض ، صهاريج البترول المحاطة بساتر دائرى من الطوب الأحمر ، أشعلها العدو فى اليوم التالى لإغراق المدمرة « ايلات » ، بكى عمال المصنع ، تـدافع رجال الأطفاء ، وشوهد رجل عجوز لم ير بعد ذلك أبدا . عرفه العمال الموظفون بائعا للسجائر والصحف منذ انشاء المصنع لم يفارق موضعه حتى بعد التهجير ، قيل إنه حزن واحترق مع المصنع ، سواتر الطوب لم تتحمل الحرارة ، التهبت ، تطاير الطوب الساخن المشتعل كالشظايا فى كل اتجاه ، من خلال المنظار لمح عربة فوق الطريق الممتد بين السويس وبور توفيق ، عربة جيب ذات أربعة أبواب ، تخصص عادة للقادة . من اهتزازاتها يشعر بالحفر التى تمر فوقها ، توارت خلف أحد البيوت ، ظهرت . . اختفت ، ربما تمر بالشارع حيث الاستديو الذى عمل به سنوات ، لابد أن الغبار

غطى الفاترينة الزجاجية التى تتصدر واجهة العمارة وتزدحم بعشرات الصور ، ربما انهار البيت ، لا يمكنه رؤ يته من الجبل ، على بعد امتار من الاستديو مطعم أبى أمل المتخصص فى السمك المشوى ، عندما تنتاب أحد زملائه نوبة تحد أو كرم يصيح . . والله أدعوكم للغذاء عند أبو أمل ، أغلق بعد التهجير ، سمع أنه فتح فى طنطا لكن لم يقبل عليه أحد ، يذكر واجهته عندما رآه مغلقا فى آخر مرة رأى السويس قبل ذهابه إلى سيناء ، قائمة الأسعار بهتت الوانها ، تطل ملتصقة بالزجاج ، زهور صناعية مطلة من إناء خزفى فوق منضدة مهجورة ، ما أثار حزنه طوال تردده على السويس أو أقامته بها رؤ ية دكان مغلق يحمل اسم صاحبه أو ثلاجة زجاجات كوكا كولا تستقر بين الأنقاض كأنها وضعت بعناية ، أو لافتة طبيب تطل من بين الأنقاض أو زجاجة دواءبها بقايا لم تستعمل ، نسيها أصحابها أثناء رحيلهم وبطريقة ما طفت فوق الأنقاض ، مضت عربة الجيب ولم يرها ، ربما عبرت أمام البرق ، أو أدهم الشرقاوى ، ربما ركبها أحدهم ، ترى . . كم بقى منهم ؟ إلى أين رحل سليمان الحلبى ؟ أى مهمة أو كلت إليه ، وهل عاد سالما ؟ . أين مضى البراق ؟ ماذا فعل الفتى مهران يوم الرابع والعشرين من اكتوبر عندما هاجموا المدينة ، قاتل من ؟ بمن التحم ؟ هل غطاه سيف بن ذى يزن ؟ عملا دائما متلازمين ، تجاوروا فوق دكة واحدة بالمدرسة ، وعندما عينا التحقا بمجلس المدينة ، فى الدوريات القتالية التى

خرجوا فيها ، ينضم الفتى مهران إلى مجموعة الاقتحام دائما ، ويبقى سيف بن ذى يزن فى مجموعة الأستاذ ، ترى على من انقض الصاعقة ؟ من مضى ؟ من جرح ؟ المدينة فى متناول نظره ، يمد يديه فيحضنها كلها ، يجهل أيامهم التى عاشوها بدونه . بعد عملية عبور الشط التى تمت منذ أربع سنوات وقام بها أعضاء الوحدة القدامى . لم يمض على تطوعه وقتئذ سوى أربعة أشهر ، انتظرهم فى مركز التجمع فوق الضفة الغربية . فى الفجر بدت ملامح سليمان الحلبى قاسية ، كأنه سافر أياما طويلة بلا راحة . قال بايجاز كالأوامر . .

« صرنا سبعة . . . . . » .

ضاعت كل ألفاظ الترحيب والحماس التى توقع أن يفوه بها . . قال سليمان الحلبى . .

« طومان باى » .

قال إنهم عادوا بجثمانه ، هل يتطلع سليمان الآن إلى احدهم ، يقول . . « صرنا . . . » . يسكت ثم يقول بأسى موجع « ريح الجبل » ، لكن أين جثمانه ؟ ان مثواه غير معروف بالنسبة إليهم ، يود لو أتصل بهم ، يطمئنهم ، أثناء الحصار ودلو حقق اتصالا بهم ، لم يدر كيف . تملكته رغبة أن يعرفوا وجوده فوق عتاقه ، كلها تطلعوا إلى الجبل

الذى يسد الأفق ، ويضع حدا للفراغ الجنوبى حول المدينة ، يود لو عرفوا الآن أنه هنا ، أنه باق حتى الآن بعد انسحاب العدو من الجبل ، أنه لم يفارق الصخور ، أنه يفتح الجهاز بين الحين والحين ليزعق . .

« أنا ريح الجبل . . . هل تسمعنى ؟ » .

لا يدرى كيف سيبدأ حديثه عندما يلتقى بهم ؟ سيبحث عن الوجوه التى عرف معها الخطر ، ربما جهلوا شكله ، يتحسس لحيته التى طالت ، تعقدت ، أحاطت بوجهه ، منذ حين لم ينظر فى المرآة ، ظلال الجبل تجعل المياه معتمة ، المقادير المتجمعة منها لا تسمح بانعكاس وجهه ، انه لم يغتسل بصابون ، فى الشتاء لا أثر للغبار فوق عتاقة ، ربما تغير لون جلده ، ربما تغيرت ملامحه . لكثرة ما تعاقب عليه من انفعالات . وتوقع عشرات المواقف ، لطول ما صفعته الرياح الملحة ، الدائمة ، ربما جهلوا شكله ، تدركهم حيرة . .

« أنا ريح الجبل . . . . هل تسمعنى ؟ » .

يرجىء تخيله للقائه بهم لعجزه عن تصور ما سيحدث ، سيحكى لهم عن أيامه . . ، لا . . سيطلب كوبا من الشاى الساخن ، منذ اربعة وتسعين يوما لم يذق طعاما له قوام ، لم يقطع رغيفا ، ولم يشعر بمرقد دافىء ، سيبدو الكوب الساخن غريبا بين يديه ، سيتحسسه ، يقربه من

فمه ثم يعيده ، نسى ملمس الزجاج عند الشفتين ، دخول المشروب الحار إلى الفم ثم إلى المعدة ، نسى متعة الطعام مع الآخرين ، عندما يأكل الانسان بمفرده يصبح الطعام متشابها ، لا يثير شهية ، لا يلحظ الفرق بين طعم وآخر ، عندما تتكرر الأيام ولا يتحدث وقت الطعام إلى أحمس الأول ، إلى الصعيد الأعلى الذى يهوى قص الحكايات والنوادر وقت الغذاء أو العشاء ، إلى أدهم الشرقاوى بطريقته الوثيرة فى المضغ ومشاكله مع الفتى مهران إذا أكلا من طبق واحد . الفتى مهران يلتهم الأكل بسرعة كواجب ثقيل فرض عليه ، سيقول إنه ذاق جميع أنواع الحشائش التى تنمو فى الجبل ؛ القصير والطويل ، النحيل والغليظ الذى يفرز مادة تشبه اللبن ، افتقد الأحساس بالمذاق بعد أسابيع من تكرار أكله هنا ، سيتطلعون إليه ، سيسأله أحمس الأول عن بداية الظروف فوق عتاقة . سيقول أنه كلف بمهمة خلف الخطوط ، لكن لكم ستبدو أصوات الآخرين غريبة فى أذنيه ؟ منذ أربعة وتسعين يوما لم يحاور إنسانا ، لم يصغ إليه آخر يجلس فى مواجهته ، لم يسأله مخلوق ليجيب ، لم يسمع إلا أصوات الراديو ، أصواتا مجهولة المنبع تتحاور عبر الجهاز فى الثوانى القليلة التى يفتحه فيها ليرسل برقية أو يبلغ رسالة ، أثناء تواجد العدو واقترابه من مواقعه أصغى إلى أحاديث ليلية بالعبرية أمكنه التقاطها فى لحظات هبوب الرياح باتجاهه ، لكنها أصوات عدو ، لا يمكن أن يحاورها ، يتلقاها

فقط ، يدون ما يدركه منها فى ذاكرته ، قديما ألح عليه تساؤ ل ، هل يمكن للإنسان أن يتحدث ويستمع إلى صوته فى نفس الوقت ؟ ولماذا يبدو الصوت غريبا فى أذنى صاحبه إذا استمع إليه مسجلا ؟، بعد انسحاب العدو فوجىء بنفسه يتحدث بصوت مرتفع ، وبدا ذلك غريبا فى صمت الجبال الأزلى الدائم ، تعيد إليه الصخور كل ما يلفظه محورا ، غريبا ، ثم صمت عندما أدرك احتمال وجود أجهزة ما تركها العدو ، هل استمع إلى نفسه ؟ لا يدرى ، سيحرص على قص كل التفاصيل ، أى متعة سيلقاها فى تحريك شفتيه ، والتعبير عما يقوله بيديه ، وإشارات أصابعه ، سيتحدث هادئا ، واثقا ، كل من سيصغون أصدقاء ، سيقول إنه كلف بمهمة خلف الخطوط فى اليوم الثانى للحرب ، لم يعمل معه دليل من بدو سيناء . يعرفون أنه يحفظ الدروب والمسالك ، لو أغلق عينيه يستطيع رؤ ية الصخور عند الكيلو ٦٠ على الطريق الأوسط ، يرى المنطقة الواقعة جنوب سدر بكل ما تحويه من صخور ذات أشكال آدمية ، كأنهم رجال تاهوا فى الصحراء ثم وقفوا يسددون البصر فى أتجاه واحد ، لم يستطع النوم فى هذه المنطقة ، قضى ليلته الوحيدة بها مستيقظا ، فى كل ثانية يحمل الليل نذرا مجهولة ، تطلع إلى السماء ورأى السحب تمر أمام القمر ، خيل إليه أن الحياة دبت فى الحجارة ، يعرف زملاؤه أن المقاتل خلف الخطوط لا ينتظر معونة من أحد ، يصبح المنفذ والمخطط وصاحب القرار ، تنأى

الصداقات ، وينعدم العون المباشر ، يشده إلى دنياه ، إلى أصحابه ، إلى ما انقضى من عمره ، إلى ما هو مقبل ، ذلك النداء الموجز الذى يـأتيه وسط البرامج الاذاعية فى لحظة معينة ، تدب الحرارة الهادئة فى عروقه إذ يصغى إلى صوت المذيع الهادىء . .

من الوادى إلى ريح الجبل . .

أحيانا يبتسم ، كأنه يجاوب هذا المذيع الذى يجلس فى أستديو مغلق ، يتلو كلمات لا يدرى إلى من توجه ، وماذا تعنى ؟ . لا يدرى ما أحدثه من أثر فى روحه خاصة إذ ينهى الرسالة قائلا . . الله معك . . فى ساعة معينة يستطلع كل شبر يحيطه ، حتى ظلال السحب وزحفها فوق الرمال ، وآثار الحشرات والثعابين ، ربما أخفت فيها بينها آثـارا آدمية ، يتجنب الـطرق المرصوفة ، يتأكد خلو السماء من الهيلوكبتر أشد ما يحذره خلف الخطوط .

من ريح الجبل إلى الوادى . . هل تسمعنى ؟

عندما كان يجيئه الصـوت ، عندمـا كان الـرد يأتى فـورا ، يدركـه حماس ، كأنه يمر بكل البيوت والطرقات والأهل والمدن التى تعبرها تلك الإشارات غير المرئية ، كلمة واحدة فقط .

نعم . .

ويبدأ أرساله ، يطمئن إلى أصغاء آذان من يعرفهم ، تـردد صوتـه هناك ، آلة تسجل ، أقلام تكتب ، رموز تفك ، عندما انهى مهمته خلف الخطوط عبر خليج السويس فى الموضع المحدد له تماما ، لأمر ما ، ربمـا العادة ، ابتعد عن الطرق الرئيسية ، ربما لشعـور خفى يكتسبه المقـاتل خاصة رجل الاستطلاع ، فضل أن يطرق دربـا مهجورا لينـزل منه إلى السويس ، انتقل وثبا ، أوشك أحيانا أن يحبو حتى لا يتيح لمراقب بالمنظار أو أجهزة الرؤ ية رصده ، فى هذا الوقت لم يحمل بطاقة أو علامة ، هكذا من يذهب إلى خلف خطوط ، ربما تعرض لمضايقة لو لمحه أحد الجنود من زملائه ، فى تلك اللحظات تخيل لقاءه بأصحابه داخل السويس . قفز ، جرى ، تخيل حديثهم معه فى الليلة الأولى ، كيف نصبت المعابر ؟ كيف عاشت المدينة ؟ كم عملية قاموا بها ؟ ثم نومه فى مكانه المعتاد ، رائحة العرق ، رائحة الزيت المستخدم لتليين السلاح ، قـطع الكهنة القـديمة اللازمة لتنظيف المدافع والبنادق ، الطعام المعد بسرعة ، فى ذلك اليوم ظن أنه سيلتقى بهم بعد دقائق أو ساعات على أكثر تقدير لو أنهم تحركوا الى جهة ما ، أو نقلوا مقر اقامتهم . لكن تلك الدقائق استمرت أياما وشهورا ولا تزال ، لم يرهم حتى الآن ، ولم يفتح الطريق بعد لرؤ ية الأحباب ، قبل وصوله أطراف المدينة الشمالية لمح عربة مدرعة مما يستعمله العدو ، ماذا جرى ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ هل استولى عليها الرجال ؟. قبـل

المغيب فى نفس الميعاد . تلا المذيع بسرعة . .

« من الوادى إلى ريح الجبل ، الزم الأعالى ، الهدف محاصر ، الزم الأعالى . . » .

بعد لحظات امتدت إلى مفتاح الأرسال ، لم يقم بالاحتياطات اللازمة ، ربما لادراكه أنه عاد من خلف الخطوط .

« من ريح الجبل إلى الوادى . . علم . . هل تسمعنى ؟ » .

تساءل وقتئذ ، إلى أين سيمضى ، أين سيبقى ؟ ما هى المهام التى سيقوم بها ؟ كيف ؟ لم يتبق معه الا القليل من المؤ ن ، باكو بقسماط ، ربع زمزمية ماء ، ما يرتديه أفرول كاكى صيفى خفيف ، لديه بطانية واحدة يطبقها ويحملها فوق ظهره ، مرة أخرى حرص على التوارى عن الأنظار ، ابتعد عن طريق السويس ــ الأدبية ــ قطع المنطقة الرملية بسرعة ، وصل إلى سفوح عتاقة المواجهة للمدينة ، يعرف كل شبر يبدأ من هنا ، تسلق المرتفعات التى تندرج على مهل ، تزايدت سرعته ، لمدة ساعة كاملة لم يتوقف لحظة واحدة ، أثار ذرات رمال التصقت بالصخور ربما لم يرها أحد من قبل ، ودار حول المرتفع الجبلى الحاد الذى يشبه سنام الجمل ، لم يتوقف ألا فى منطقة بقلب الجبل ، تشبه غرفة صخرية طبيعية ، تعلو جدرانها حوله حتى لتحجب بقية الصخور ، والقمة الحقيقية المرتفعة المطلة

على الوادى ، داخل هذه المنطقة جلس ، هدأ قليلا ، المدينة بعيدة عنه الآن ، يمكنه لو وصل أعلى نقطة أن يرى الأضواء بها ، لكن جدرانا ضخمة من الصخور عزلته وقتئذ ، فى هذه الساعات الأولى لم يفكر كثيرا فى السويس ، ما شغله كيف سيقضى الوقت الذى لا يدرى مقداره فى عتاقه ؟ كيف سيقضى أموره بما لديه من مؤ ن ضيئلة ؟ فى أيام التدريب الأولى جاء إليهم العميد أركان حرب عبد الله القلعاوى ، قائد المجموعة السابعة قتال ، يذكر ملامحه الهادئة ، وقفته المستقيمة ويداه تلامسان خصره ، يومها قال لهم « لا حدود لقدرة الانسان على التحمل ، كما أن قدرته على التكيف هائلة » لا يدرى ماذا قام به القلعاوى خلال الحرب ؟ لا يدرى أين هو الآن . . هل . . حاول طرد الأفكار السوداء ، عندما فكر فى القلعاوى خطر له دائما . . انه يحارب الآن . . سيقول انه فى الليل الجبلى الوعر يختلف تفكير الانسان ، ربما لتحفز حواسه كلها واستعدادها لتلقى المفاجآت الجبلية ، ما قد يأتى به الظلام ، ربما التقى جنديان صديقان فى العتمة الحجرية واقتتلا بدون أن يدرك كل منهما حقيقة الآخر ، يعرف أن عتاقة ملىء بدروب وممرات خفية لم يحط بها انسان واحد ، سيقولون له ولكنك أكثرنا معرفة بالجبل قبل صعودك إليه ، سيقول لهم أنه اكتشف طرقا فى الذرى لم يتخيل وجودها أبدا ، ومدقات لا يمكن أن تظهر فى أى صور تلتقط من الجو ، وانفاق تؤدى إلى وديان بعيدة يمر بها الانسان

ولا يكاد يلحظهـا فكأنها ظللت كلهـا بنسيج عنكبـوت غير مـرئى كغار حراء ، حتى اعتى مهربى المخدرات وأكثرهم استخداما للجبـل يجهلون معظم أسراره ، سيسأله سليمان الحلبى عن حقيقة هذا الدرب المؤدى إلى مصر ، أقاويل كثيرة تتردد عنه ، يكفى ان يكتشفه ليصبح بعـد مسيرة خمس دقائق أو سبع على أكثر تقـدير فى قلب مصـر ، ينزل إلى ضـاحية المعادى ، ثم يقطع الشوارع الممهدة ، ويدور مع المنحنيـات ، ويتأمـل الشرفات ، والنوافذ المفتوحة ، والنوافذ المغلقة ، والضوء الناعم المنبعث من النجف خلف الستائر المسدلة والموحى بلقاءات أسرية دافئة ، وحياة مستقـرة ، درب قصير يمضى عبـره إلى الأمسيات بـين الناس ، والمشى بشكل طبيعى ، وتأمل الفتيات مع أصدقائهن فى الطرقات الجانبية ، واذا يمر أمام أبواب العمارات الضخمة تهب عليه رائحة رطوبة معتقة ، مزيج من رائحة السلالم الرخامية الممسوحة ورائحة الأخشاب القديمة ، وانفاس أسرية ، ثم الذهاب إلى بيته ، تناوله العشاء ، يقطع رغيفا ، يمضغ ، ثم ينام فوق حشية قطنية ، يضع رأسه فوق وسادة . . . سيقول لسليمـان الحلبى انه لم يكتشف هذا الدرب ، لم يهتد إليه ، فى ليلته الأولى بدأ قصف جوى فوق المدينة ، أصغى متلفعا بالليل والجبل ، غارة متصلة ، يعرف صوت قنابل الطائرات خاصـة الألف رطل التى تفجـر المياه من بـاطن الأرض ، فى لحظات التحامه بالعدو أو اجتيازه أقسى مراحل الخطر ، فى

قلب جنون القتال الذى يمسك الانسان تماما ، يركز عينيه وحواسه ليلتقط لحظة معينة لا تفلت من وعيه ، لحظة ملامسه الخنجر للرقبة ، الوضع الملتوى للجسم الآدمى بتأثير المفاجأة والرعب ، اتساع العينين ، ابتلاع اللعاب ، يذكر جندى عدو فوجىء بهجوم الجماعة على العربة المدرعة ، راح يجرى إلى الخلف والبندقية معلقة إلى كتفه ، لم يفكر حتى فى أشهارها . . المفاجأة أخطر ما يحويه ليل الجبل ، هذا ما يجب أن يحذره ، ستجيىء لحظات يتأمل فيها على مهل ، سيقول لهم أنه تساءل أول ليلة أثناء الغارة ، أين تنزل قنابل الألف رطل ؟ هل أصيب أحد زملائه ؟ هل دمر مقر الوحدة ؟ هلى القصف ضد أهداف معينة أم انه طائش ، أعمى ؟ تأكد من وجود العدو تحت الجبل وحول المدينة ، استمرار القصف الجوى الليلى يعنى أن العدو لم يقتحم البيوت والطرقات وأماكن الذكريات وبيت الأسرة ، ما استبد به القلق على الرجال . . لابد انهم فى نقطة ما من هذا الليل الوسيع يقومون بعمل ما ضد العدو ، أين هم ؟ للحظات خاطفة يضاء الجبل باصداء الأضواء البعيدة كأنه البرق فوق بلاد مجاورة ، للمحة عين تبدو أشكال الصخور ، قرب الفجر الحت عليه الرغبة فى رؤ يتهم ، داخله شعور خفيف بالبهجة لمرور أول ليلة عليه ، مجىء النهار ، ولم يكن بعد قد عرف ما تعنيه لحظات الضوء الأولى وسكون الساعات الأخيرة من اليوم ، الساعات الممتدة أمام الليل الوحشى ، استبد بـه القلق عليهم

عندما وصل إلى قمة الجبل وتطلع باتجاه المدينة ، رأى دخانا ، قدر حجم الحرائق ، سيقول لهم انه لم يتخذ أصحابا فى المدرسة ، لم يتخذ صديقا حميا عندما عمل فى استديو فكرى للتصوير بعد خروجه من الدراسة أثر رحيل والده ، لم يشترك مع أبناء الحى فى مغامراتهم ، لم يعاكس بنات حى الأربعين أو درب أو الهاويس ، اذا تصادف مشيه فى الطريق خلف فتاة يسرع حتى يتجاوزها لكيلا يراه أحد المعارف فيظن أنه يقتفى أثرها ، سيقول أنه لم يشعر بنعمة الصداقة الا بعد التحاقه بالوحدة ، اكتشف من جديد أبناء السويس الذين تطوعوا معه ، كأنه عرفهم لأول مرة مع أنهم زاملوه زمنا ، فى معسكرات التدريب مضى الوقت كله عليهم معا ، فى دوريات المشى الطويلة عبر الصحراء ، يضحكون ، يتحدثون عن الضباط ، عن الباشجاويش وقسوته التى لا يلمحون غيرها ثم رقته المفاجأة نحوهم عندما حزموا عتادهم واستعدوا للالتحاق بالوحدة يومها أقيم احتفال قصير بتخرجهم ، اصطفوا فى مربع ينقص ضلعا ، نزل الجاويش الى المدينة القريبة ، اشترى الحلوى ، اشرف على توزيعها فى الأطباق عند اعداد الميس ، عند باب المعسكر وقف يرمقهم . أخذ سيف بن ذى يزن زمام المبادرة . عانقه . . اقبلوا واحدا ، واحدا ، رصد فى عينيه دموعا ، عندما خرجوا معا فى دورية سير لمسافة مئات الكيلو مترات بالصحراء الغربية ، دليلهم النجوم وعلامات قليلة ترشدهم إلى نقطة

الوصول . توقف موج البحر ، اقترب مادا يده ، ضاما قبضته وكأنها ميكرفون إذاعى . .

سيداتى آنسانى سادتى ، على ناصية ما من الصحراء الغربية تلتكى ــ نلتقى ــ بمجموعة من المكاتلين ــ المقاتلين .

نكدر ــ نقدر ــ نتعرف بسيادتك .

سليمان الحلبى ، أنا موظف بشركة إلنصر للبترول ، متطوع .

أخ سليمان . . ممكن تعطينا فكرة عن بطولاتك . .

قتلت الجنرال كليبر . . ورجعت بأسير اسرائيلى . .

هايل . . برافو . . انت لكنت ــ لقنت الأعداء دراسا لن ينسوه عندما كتلت ــ قتلت ــ الجنرال كليبر الصهيونى . . .

يا أفندم الجنرال كليبر فرنسى . . قتلته من مائة وسبعين سنه . . لا يختلف الأمر كثيرا . . تفضل أى أغنية ؟

وهنا يصيح أحمس الأول . .

أنا كلبى ــ قلبى . . إليك ميال . .

يضحكون ، ينطلق موج البحر مغنيا وكأنه يلبى بالفعل ما طلبه

سليمان الحلبى وأحمس الأول ، فى الصحراء يصيح أدهم الشرقاوى . .
يا ريح الجبل . . تلقف هذه . .

يلتفت . أدهم يمسك بدانة مدفع قديمة لم تنفجر ، كأنه على وشك إلقائها باتجاهه . تعلو يده ثم تنزل على مهل ممسكة بالدانة حتى يضعها فوق الرمال . فى الليل عندما يستعد بعضهم للنوم ، ويبقى آخرون مستيقظون ، يتحدثون عن المدينة الكبيرة ، وازدحام الشوارع فى المغيب ، يقوم البرق قائلا إنه بمجرد انتهاء الدورية ونزولهم أجازة سيمشى فى شارع سليمان باشا ، يتفرج على الفتارين المضيئة والفتيات الجميلات ، ثم يأكل فولا وطعمية عند الدمياطى . هنا يقول موج البحر : أهذا كل ما تحلم به ؟ هناك من ينفق الف جنيه فى ليلة واحدة ، تساءل الصاعقة عن حقيقة ذلك ، وهل يمكن صرف مثل هذا المبلغ فى ليلة واحدة ، أكد موج البحر أن هذا ممكن فى شارع الهرم ، استفسر الصعيد الأعلى عن حقيقة ما يقال حول أسعار المبيت فى فندق الشيراتون ، وهل تبلغ حقا عشرين جنيها للسرير الواحد فى الليلة الواحدة ؟ قال البرق ؟ انها تبلغ أكثر من ذلك قال الصعيد الأعلى ، إنه لو نام فى غرفة كهذه سيظل يرتعش طوال الليل . تساءل الفتى مهران ، من الخوف أم من التكييف ؟ ضحكوا . . قال سليمان الحلبى هذا عالم غريب . .

لا يدرى ريح الجبل أين هم الآن ؟ ربما يتجمعون معا ، ربما عاد بعضهم إلى الوحدة . يود أن يرى أحدهم ، يشكو لـه برودة الجبل ، خاصة برد العصارى المصحوب بالسكون القاصى ، يعرف أن الحركة تبلغ ذروتها فى الطرقات قبل المغيب ، حتى فى المعسكرات النائية البعيدة تتخذ الحركة ايقاعا سريعا مع اقتراب الليل ، وكأنها لمسات أخيرة يضعها الانسان على نهار مول ، ينقل الجنود أوانى الطبيخ ، يذهب البعض إلى الحمامات ليستحمون بعد طابور الرياضة . يلعب آخرون الكرة ، يستعد الجندى المسئول عن النادى لتشغيل التليفزيون . سكون عتاقة ينأى بالمدن الى عالم آخر . يجعلها تبدو شاحبة كنسمة خفيفة تمت إلى الحقول . لابد أن كثيرين من الجنود عادوا إلى زوجاتهم وأمهاتهم . يجلسون معهم الآن . بعضهم خرجوا إلى الطرقات مع أطفالهم . أو ذهبوا لزيارة أقاربهم ، يحكون عن الحرب كذكريات ، طومانباى خرج ولم يعد الى أمه منذ أربع سنوات ، عندما مضوا إليها عال كل منهم هم اللقاء ، ماذا سيقول وأى كلمات عزاء ؟ قال سعيد مهران إنه يمكنه جز رقبه جندى عدو ، لكنه لا يطيق رؤ ية أم زميل ذهب ولم يعد . قال سليمان الحلبى إن طومانباى مات ميتة نحسده عليها « الهم والباقى علينا نحن » ، طلب منه سيف بن ذى يزن الا يتحدث هكذا أمام أم طومانباى . أن يراعى شعورها . لاقتهم عند الباب ، نحيلة ، قصيرة القامة ، ولى شبابها مبكرا قبل

الأوان ، يعرفون أن والد طومانباى رحل وهى فى الثالثة والعشرين ، تفرغت تماما لتربية ولديها . أشرفت أشجار الفاكهة المملوكة لهم فى قرية الجناين ، جادلت التجار ، ناقشت الرجال ، رفضت كل من تقدم إليها ، امتلأ وجهها بتجاعيد وآثار العناء ، تلك العلامات التى ترى على وجوه الفقراء ومن قاسوا طويلا . .

« اهلا بحبايب ابنى . . » .

بدت متماسكة أكثر من القادمين لعزائها ، فكر ريح الجبل ، ما أقسى لوعة الأم التى تعيش موت ابنها بعد كل ما قاسته من آلام حمل ووضع وسهر ليال ، لم تبد أم طومانباى شيئا من هذا ، بعد لحظات صمت دارت بعينيها فى وجوههم ، سألت عمن جاوره أو اقترب منه ؟ قال خالد بن الوليد أن كتفه لامسه طوال العملية ، قال الحسين أن بصره لم يفارقه ، طلبت أن تسمع ما قام به أبنها ، تلاقت العيون فى حيرة ، ثم استقرت على سليمان الحلبى ، بدأ يحكى وهى تسمع ، أبدت اهتمام عندما قال أن العدو أجهد نفسه فى معرفة شخصيته لكثرة ما كبده من خسائر ، قال انه بينه وبين العدو دما كثيرا . برقت عيناها عندما وصل سليمان الحلبى إلى لحظة رفع العلم على الضفة الشرقية ، فى أول عملية عبور تتم فى وضح النهار ، قال إن العلم ما زال مرفوعاً وجنود الموقع المقابل خصصوا كمية من الذخيرة لحمايته ، وجنود المواقع القريبة يفدون لرؤ ية العلم الذى رفعه

المرحوم اصغت صامته ، وأبدت بعض الاستفسارات . ثم أطرقت لحظات ، رفعت رأسها . .

البركة فيكم . .

أصرت على المشى معهم فى الدرب الصغير المؤدى إلى طريق القرية العام ، عند انصرافهم قالت هامسة . .

طلوا على يا أولاد . . ولا تنسونى . .

انقبض ريح الجبل ، هذه الكلمات القليلة يذكرها الآن ، تجسد وحدة مرة بعد رحيل حبيب ، تماما كليل الجبل المقبل والذى لا راد ولا مانع ، صار يزورها بانتظام ، فى المواسم الأعياد ، زارها مرارا سعيد مهران ، والحسين ، وسليمان ، وخالد بن الوليد ، والبراق ، والصاعقة ، وأول ضوء ، لكن ريح الجبل وأظب على الذهاب ، يقص فى كل مرة تفاصيل مما رآه من طومانباى ، حكى أيضا عن ظروف اختياره لهذا الاسم ، وقال انه عاشق للتاريخ ، وهو الذى اختار الاسم لسليمان الحلبى ، وللحسين ، قامت الأم ، جاءت بصندوق كتب خشبى ، راحت تخرج كل كتاب بعناية ، تريه لريح الجبل ، أحيانا تمسك كتابا مقلوبا ، قالت إن المرحوم لم يبخل على القراءة بمليم ، وأحيانا قالت له ، ارحم عينيك لأن البيت لم يصله ضوء الكهرباء ، قلب ريح الجبل

الكتب ، أعادت ترتيبها ، فى كل مرة تقول ، عندما تأتى فكأننى أرى المرحوم .

سيقول لها بعد أن يصله النداء أنه يعتذر لانقطاعه عنها ، وأن أحوالها شغلته خلال حصار السويس ، إن قلبه حدثه بأنها لم تفارق الأرض سيطلب منهاأن تسامحه لأنه لم يأت بسبب غيبته فوق الجبل ، لكنه لم ينسها أبدا ، فكر فيها كثيرا ، وتمنى لو أنها دعت له بالسلامة ، سيقول لها أنه حرم من نظرة الأم ولهفتها منذ وقت كبير ، سيحكى لها عن أيامه أيضا .

سيقول لأصحابه إنه لم يفاجأ بقتله طومانباى فوق الجبل ، بهدوء أحصى عددهم ، رأى معاطفهم الثقيلة بألوانها الزيتونية ، رشاشات العوزى القصيرة . البنادق الأمريكية سريعة الطلقات . كانوا محاربين من سلاح المظلات ، تساءل ، هل سيبقون ؟ بدا واضحا أنهم دورية استطلاع ، حمل بعضهم أوراقا ، أمسك أحدهم دفترا عريضا يضم صورا جوية ، هذا يعنى أنه لا توجد لديهم خرائط لممرات الجبل ومدقاته . .

سيبتسم البرق قائلا . .

ومن أعد خرائط لعتاقة ؟ أأن دروبه محفوظة فى أذهان رواده . .

سيكرر سليمان الحلبى سؤاله عن ذلك الدرب القصير الذى يصل إلى مصر ؟

سيقول إن الجبل سيظل لغزا مستعصيا ، فى طفولته رأى عتاقة حدود الدنيا ، لا مدن وراءه ، لا صحارى ، يعيش بـه جن أخيار ، وجن أشرار ، الشمس تسكن فيه ، السحب تنبع منه ، مع تقدم عمره سمع عن الدروب الخفية التى لا تبوح بنفسها إلا لمن تردد عليها مرات ومرات ، من يعرفها يصل إلى أى مكان فى بر مصر ، من يجهلها يهلك وهو على مرمى حجر من مصدر ماء ، أو مدق ترابى يؤدى به إلى النجاة ، منذ ظهورهم لم يعد همه الوحيد مواجهة الشتاء فوق الجبل مرتديا افرولا صيفيا ، بلا مؤن ، إنما أصبح عليه أن يواجه العدو أيضا ، فى البداية لم يقل له النداء كيف يدبر مأواه وطعامه ؟ . فى صباه حلم بالوقوف فوق أعلى نقطة . لكن ما شغله طوال هذه الأيام العثور على أصلح مكان للعمل ، ما أقلقه ليس ظهور دورية الاستطلاع المعادية ، إنما تلك الساعات الأخيرة من الليل ، عندما يمتلىء الفراغ بشفرات جليدية تحز الجلد وتنفذ الى العظام ، لا يذكر من قال يوما أنه لا يستطيع النوم طالما بقيت أطرافه باردة ، يبتسم ، من يتخيل نوعية البرد ينزل آخر الليل هنا ؟ يفقد انفه أحيانا ، يدلكه بأصابعه حتى يعيده إلى مكانه . مع البرد يزداد جلد الحذاء صلابة ، فى بداية الليل يشع الصخر دفئا غامضا سرعان ما يتلاشى ، فى البداية تساءل ، كيف ستمضى الأيام هنا ؟ خيل اليه انه لن يحتمل ليلة واحدة ، ماذا سيقوم به ؟ لا يحتمل الأيام الخالية من العلامات ، فى المدينة

أو التدريب أو خلف الخطوط يلتزم الإنسان بمواعيد محددة ومهام معينة تكسب الأيام ملامح وسمات . تجعل هذا يوم اثنين وذلك يوم ثلاثاء ، لم يهتم بتدوين علامات تذكره بالأيام . عندما توالت الليالى عليه ، لم يتجمد ، لم يمت ، اختلطت عليه الساعات والأيام ، كيف يدرك أن هذا النهار ثلاثاء وليس أربعاء ؟ أدرك أهمية ذلك عندما ظهرت دورية الاستطلاع المعادية ، ظهورها يوافق مضى سبعة أيام عليه ، فكر فى حفر علامة بسيطة على الصخر فى موضع معين ، لكن ربما لمحها أحد ، يدرك انها نتاج فعل انسان ، جمع سبع زلطات صغار ، يضع واحدة فى يوم السبت قرب مكان نومه الرئيسى ، اثنتين يوم الأحد قرب مكان البطاريات الاحتياطية ، الأيام تولى والبرد يتضاعف .

فى اليوم التالى لذهاب الدورية جاءوا . سيقول إنه لن ينسى أبدا ملامح أول من رآهم قادمون للإقامة ، ليس لأنه يجتهد فى التقاط التفاصيل ، حتى لايضطر إلى استعمال أى نوع من التدوين المكتوب ، إنما لأنهم أول افراد رآهم وعليه متابعتهم . أحدهم غطى رأسه بقلنسوة صوفية ، يبدو من تحتها شعره الطويل ، جندى آخر أسود اللون قدر أنه من جنوب افريقيا ، ثالث لم يزد عمره على سبعة عشر عاما ، ذو الشعر الطويل يتولى القيادة . هدف ممتاز لقناص ، لكن الظروف لا تسمح ، أشار بيده مرات ، حاول الأسود الانحناء وأشعال سيجارة . لحسن حظه أنه لم

يدخن طوال حياته ، بمعنى أنه لم يدمن التدخين فى ليلة حنة سويسية ، أو فى فرح أحد الأصحاب ، دخن سيجارة واحدة ، لو افتقد التدخين لأضاف هذا متاعب إليه .

سيقول إن وجود العدو أثار اهتمامه . أدرك أنه بدأ يعمل . لم يعد الجبل خاليا ، الأمر يختلف عن عمله خلف الخطوط ، هناك الصحراء فسيحة كالبحر . هنا المسافات المستوية محدودة . أماكن المشى شحيحة . اقتفاء الأثر أسهل ، التعرض للرؤية محتمل أكثر . نسب الجبل تتغير ، فى الليل يزداد ضيقا ويبدو مرتفعا أكثر ، ثم المفاجأة ، كل قمة تخفى المفاجأة . قبل مغيب اليوم فتح الارسال ، فرح ، أخيرا يعود اتصاله ، فى الليلة نفسها قال المذيع بصوت هادىء .

« إلى ريح الجبل ، لمسنا آثارك . . ننتظر هبوبا أكثر . . . » .

ثم بدأت موسيقى . لم يصغ الا لحظات ، بمجرد انتهاء النداء أغلق الجهاز ، هز رأسه كأنه يخاطب شخصا غير مرئى ، ادخل الجهاز فى الجراب الكاكى ، حمله بعناية وحذر إلى مخبئه . فى نفس اليوم جاء الصوت الكريه . إن طائرة الفانتوم مقيتة الأزير ، تثير غثيانا ، ربما روعى هذا فى تصميم محركها ، لكنها لا تثير الاحساس بالمطاردة الشخصية ، مثل الهيلوكبتر التى تطير متباطئة هدفها حركة الانسان فوق الأرض ، جرادة

ضخمة معدنية ، جاء جنود كثيرون فى ثلاث طائرات ، الأولى من طراز سيكورسكى ، الأخرتان من طراز ـ ايلويت ـ ، استمرت المراوح المعدنية فى الدوران ، لم تتوقف ، وبدت دوائر من الظلال فوق الأرض ، أخرجوا صناديق متوسطة الحجم ، قرب السيكورسكى وقف ضابط القوة ، مرة أخرى نظر بعينى قناص ، فى مثل هذه اللحظات يتحول وجوده الى عينين ، إلى ذاكرة ترصد وتعى . نصبوا خياما صغيرة صفراء مبطنة بمطاط أحمر يبدو أنه عازل للحرارة وللبرد . نفخوا وسائد مطاطية ، أشعل أحدهم موقدا ميدانيا بآلة مستطيلة كمقبض العصا ، ابتعدوا عن الطائرة ، دارت المراوح بسرعة أكبر ، اهتزت الطائرات . مالت مقدماتها إلى الأمام . أحس بضغط الهواء الذى احدثه مرور الطائرات فوق رأسه عندما توارى فى حفرة ، منذ هذه اللحظة أصبح يعيش بينهم ، أحيانا يبتعدون عنه ، أحيانا يقترب منهم حتى لا يفصله عنهم الا أمتار قليلة ، فى الليل يصغى إلى صيحاتهم المفاجئة يحاولون طمأنة أرواحهم ، أو اصداء أحاديثهم الخافتة داخل خيام النوم ، سعال أحدهم ، أو غناء خافت يصمت فجأة عندما يتحول اتجاه الريح أو عندما يسكت صاحبه فى صباح اليوم التالى طلب منه المذيع أن يعبر الوديان بقوة ، الا يهمل شروق الشمس ، فى المغرب أرسل ريح الجبل وصفا دقيقا للقادمين الجدد ، قال ان ثلاث طائرات جاءت مع آخر ضوء ، تم ابرار مائة جندى وثمانية

ضباط أحدهم برتبة ميجور ، فوق القمة رقم (٣) جاءت سرية من جنود المظلات ، انتشرت الأسلحة الفردية ، رشاشات جليل ، مدافع الهاون ٨١ مللى ، لدى القوة جهاز للرؤ ية الليلية ، كميات ذخيرة ثم تشوينها عند النقطة « هـ » قرب منتصف الجبل ، تم نصب مطبخ ميدانى إلى الشمال من ــ ك ــ ، وحمام ميدانى ، العدو يطلق مشاعل مضيئة ليلا بمعدل قذيفة كل ثلاثين ثانية لمدة نصف ساعة ، ثم يستأنف الاطلاق بفاصل زمنى قدره عشر دقائق . وأحيانا خمس دقائق عندما يتحول صوت الريح إلى ما يشبه جرى الأقدام وحديث البشر ، يطلقون دفعات متتابعة من الرشاشات فى جميع الاتجاهات ، يكفون تماما عنا الفجر ، تتخلل دفعات الرصاص طلقات حمراء كاشفة ، فى تلك الليلة تلا المذيع رسالة موجزة ، من الوادى إلى الجبل ، قال إنهم يتابعون العاصفة .

سيقول إنه تمنى لو أمتلك معطفا كاكيا ، طوال أيامه الجبلية يقمع أى رجاء بالأفضل ، ولكن عندما يثقل البرد ولا تكفى الحشائش الجبلية سد جوعه الدائم ، يتخيل جمرا موقدا ، أو أغطية ، سقف حجرة ، تذكر رحلة مدرسية نظمت إلى عيون موسى عند وقوف الطلبة آخر النهار منتظرين أوتوبيس الرحلة ، اصطفوا فى طابور عفوى ، كل منهم يحاول الاحتماء بالآخر ، أول فتى فى الطابور لم يحاول الاختفاء وراء أحد ، نسى اسمه ، قصير ، لم يرتد إلا قميصا بدون بلوفر ، عندما اقترب منه سمع

اصطكاك أسنانه . تصدى للريح وكأنه يثبت لزملائه أن نقصه سترة ثقيلة لا يؤثر عليه .

انه يكاد أن يرى زملاءه يتساءلون بعد عودته . كيف احتمل الشتاء كله فوق عتاقه ؟ كيف نام ؟ .

سيقول للحسين ، وللفتى مهران ، للبرق ، للعاصفة ، لخالد بن الوليد ، لسليمان الحلبى ، لأم طومانباى ، للصعيد الأعلى ، لأدهم ، لسيف ، انه نام منحنيا حتى لتلامس ركبتيه ذقنه . ساعات نومه غير متصلة ، بعضها فى النهار ، الليل فرصته للحركة الآمنة ، يتجمع فيه العدو . لا ينتشر ، سيقول إنه غفا ذات ليلة فوق صخرة مدببة قريبة من حافة الجبل ، استيقظ وللحظات قصار خيل إليه أنه يرقد فوق وسادة ، ويظلله سقف ، ويصغى إلى البرد فى الطرقات من خلال جدران ونوافذ مغلقة ، عندما رأى النجوم الكثيفة ، وأحس بالفراغ أدركته خيبة لم تدم إلا للحظات ، فى تلك الليلة فكر طويلا فى صوت غامض سمعه خلف الخطوط فى سيناء ، وأصوات الصحراء محدودة جدا بالقياس إلى أصوات الجبل ، لكن هذا الصوت لم يدر ما هو حتى الآن ، صوت مكتوم ، متقطع ، آنين مخلوق ضخم ، عريض ، هائل الحنجرة ، كأنه يصدر من كل مكان فى الصحراء ، أهو صوت غولة خرافية تتألم لسبب ما ؟ أم أصداء غامضة ؟ تدركه رعدة كلما فكر فيه . فى الليل زحف حذرا إلى الشقوق

الصغيرة حيث تتجمع قطرات المطر ، إلى الحشائش الجبلية ، الناظر من بعيد يخيل إليه أن الصخور مجدية ، الاقتراب منها يكشف أنواعا من الزهور ، والحشائش ، والزهور الرقيقة التي لم تقطف ، تنمو وتموت بعيدا عن يد الإنسان ، تأمل أنواعا لا حصر لها من السحالى الملونة والحشرات الغريبة ، وفراشات كبيرة لا تعبأ به إذ يمد يده محاولا امساكها . كثيرا ما تابعها أثناء تناولها طعامها ، بالضبط فى الساعة ١٣٠٠ . صوب منظارة عكس اتجاه الشمس حتى لا تنعكس أشعتها على عدستيه وتحدث بريقا يلفت الأنظار اليه ، رأى بخار الشوربة الساخن ، أحس بطراوة الخبز المستطيل ، رأى يوما جنديا المانى الأصل يقشر برتقالة ، رصد مكان تساقط قشور البرتقال حتى يزحف ليلا ويحاول التقاطها ، هذا الجندى ينهى طعامه عادة بسرعة ، أحيانا يمد يده إلى أطباق زملائه ، يخفونها عنه بأجسادهم ، أو يزجرونه . يقوم آخر يبدو أنه فرنسى ، يبدأ فى غسل يديه بالصابون ، يتدفق الماء من إناء البلاستيك برتقالى الشكل ، ينتهى بصنبور صغير لا يسمح الا لخيط نحيل من المياه بلا تدفق ، عليه كتابة لونها أحمر الإنجليزية تشير إلى مصنع هولندى فى أمستردام ، يطيل الفرنسى غسل يديه ، يتمضمض أربع أو خمس مرات ، قصير القامة ، النحيل ، لا يدرى ريح الجبل إلى أى أرض ينتمى ؟ يبدو غير مهتم بغسيل يديه أو فمه ، البندقية سريعة الطلقات لا تفارق كتفه حتى أثناء تناوله الطعام ، أو

خلال اضطجاعته داخل الخيمة ، شاب آخر يبدو أنه لم يتجاوز السادسة عشرة ، لحيته لم تنبت بعد ، يتطلع إلى أنحاء الجبل كثيرا ، بل أن عينيه لا تفارقان الصخور البعيدة حتى عندما يتحدث إلى زملائه . أو يجلس بينهم ، يشد على شفتيه ، كأنه يتوقع حدوث شيء ما . فى الصباح تبدو خطواتهم أوسع ، يتحركون هنا وهناك ، يتفحصون الجبل ، يمدون لفات الأسلاك الشائكة ، رصد ريح الجبل عدد اللفات ، ومواقع رص الألغام المضادة للأفراد التى بثوها فى المدقات ، لا حاجة بهم إلى ذرع الألغام المضادة للدبابات أو الآليات ، تضاريس الجبل موانع طبيعية ، لاحظ أنهم نثروا نوعا من الشراك الخداعية ، خاصة بالقرب من القمم ، شراك على هيئة علب مربى ، علب سجائر ، كاميرا ، أقلام حبر ، استنتج أنهم لا يحكمون قبضتهم على الجبل ، لا يمسكون بخفاياه . يتوقعون هجوما فى أى وقت ، يأملون فى التقاط أحد أو بعض افراد الدوريات المقاتلة ، أو رجال الاستطلاع هذه الشراك ، فى الصباح يروحون ويجيئون بدون معاطف ثقيلة ، لا حظ أنهم يرتدونها عند تناولهم الطعام ، ربما لأن ما يتناولونه يسبب برودة الجسم وتراخى الأطراف . بعد الظهر لا يمكن رؤ ية أحدهم يمشى منفردا ، يتجولون فى جماعات ، إذا تصادف وتأخر جندى أو اثنان بخطوة أو خطوتين يتلفتون إلى الجبل . يسرعون حتى يحاذون رفاقهم . كل منهم كأنه يحتمى بالآخر من طلقة مفاجئة قد تجىء ،

تصل إليه أصواتهم مع اتجاه الريح نحوه ، ثم تبتعد عندما تولى الريح بعيدا عنه ، لاحظ وجود جوارب نسائية وملابس داخلية معهم . لكنه لم يرصد وجود أى امرأة . مع إقتراب الليل يعودون إلى الخيام . لمح أحدهم يكتب ، من ملامحه ، وتوقفه بين لحظة وأخرى ، قدر أنه يكتب خطابا ، أو شيئا خاصا ، لاحظ أن قائد القوة يمشى دائما بين جنديين ، عندما يبدأ الليل الجبلى فى النزول يختفون كلهم داخل الخيام ، لا يبقى منهم إلا المكلفون بالخدمات ، لا ينفرد أحدهم بنفسه ، يتجمعون ، تعلو النداءات بالعبرية ، بالإنجليزية ، بالفرنسية ، بلغات أخرى لا يعرف منها حرفا ، حتى الخيام تبدو كأنها تتوارى فى بعضها ، رصد قدمين لجندى داخل خيمة منخفضة . حدد الخيمة التى يأوى إليها قائد المجموعة . لم يلحظ مرحا متبادلا بينهم ، ولم يسمع ضحكات حتى عندما يتجمعون داخل مراقدهم ، لم ير ابتسامة تصدر عن أحدهم فى وجه النهار ، الشفاه مضمومة ، الأكل بسرعة ، تجنب الصعود إلى القمم ، ربما لا بتعادهم عن مجال الرؤية الواضحة . لكن من الواضح أن مرمى نيرانهم يغطى تلك القمم .

سيقول إن أيامه الطويلة عرفت الفرح ، تمنى لو معه سعيد مهران أو سيف بن ذى يزن أو أحمس الأول ثم البراق ، تمنى لو جاءوا كلهم إليه ، فالفرح بحاجة إلى آخر قريب ليظهر ويتألق ويبهج . لكنه فى وحدته عرف

فرحه هو . الذى يبديه بدون انتظار رد فعل من آخر ، فرح غامر كاد يدفع به إلى المشى منتصبا على قدميه بلا انحناء ، بلا حذر ، أو القفز من أعلى الصخور إلى الوادى ، أو تحريك الأيدى والأطراف كما يشاء اذ لا أحد يرقب أو يمنع أو يلوم . فرح كالريح الجبلية الجارفة التى تهب عند الفجر . يختلف عما يشعر به من بهجة اذ يتلقى رسالة ، أو ينهمك فى أرسال معلومات يدرك أن هناك من يتلقاهافى نفس اللحظة . حدث ذلك لحظة استطاعته تمييز صوت طائرة الميج ٢١ . فى البداية حومت صوب الجبل ، ثم ارتفعت فى خط منحن الى مركز السماء ، بدت نقطة بيضاء متحركة فى الفراغ ، وعندما غيرت اتجاهها لمع جسمها المعدنى لبرهة كالبرق ، ثم بدأت تهوى ، كأن الطيار فقد كل سيطرة عليها ، أمسك أنفاسه ، استقامت فجأة . بدأت طلقات المدفعية الخفيفة المضادة تخدش زرقة السماء بقبضات من دخان ظلت معلقة وكأنها من حجارة . قلق ، هل أضافوا مدافع جديدة فى مواقع لم يبلغ عنها ؟ دارت الطائرة فى اتجاه معاكس ، تجنب الطيار المرمى المؤثر لمدفعية العدو ، ابتسم وحيدا ، انه شغله ، نتاج عمله . معلوماته . اختفى صوت الطائرة ، تماما ، هل ذهبت ؟ لكنه لمح الجسم المعدنى منخفضا حتى ليكاد يلامس سن الجبل ، اندفع فوقه بلا صوت ، ميز كابينة الطيار ، وتقسيمات الجناحين ، بعد ابتعاد الطائرة علا صوتها مترددا بين الصخور ، هديرا مدويا بعشرات

الأصداء منطق الجبل وتوالت طقطقات المدافع المضادة للجو فبدت كمشاة يحاولون اللحاق بسيارة تجرى مسرعة ، بعثت فيه حركة الطائرة دفئا لا يمت إلى شهر أو زمن ، كأنه رأى كل الأصحاب والأحباب ، عانق الحسين ، وشكا اليه برودة الجو آخر الليالى ، ربت الفتى مهران على كتفه مبتسما ، « أنت لها » انحنى عليه سليمان الحلبى ، قبله ثم صمت ، هكذا اعتاده اذ يعبر عن عواطفه فجأة ثم يسكت ، ود لو رأى افراد العدو كلهم الطائرة ، سينظر اليهم من مكمنة آخر النهار متباهيا « لقد حلقنا فوقكم » ، هذه الطائرة تضم شابا جدعا ، مراوغا ، جريئا ، ربما التقيا من قبل ربما احتكت ايديهما فى طريق عام بالقاهرة ، بالسويس . ربما تواجهها فى قطار ما . ربما مرا فى شارع واحد يوما ، فى نفس اللحظة يود لو تعرف اليه دقيقة فقط ، يحدثه عن البهجة التى غمرته أياما متتالية بعد تحليقه ، لكنهما ربما لن يلتقيا ولن يعرف اسمه حتى . ستؤكد الصور الملتقطة ما أرسله من معلومات ، سيقول الطيارون أن دقة تحديد مواقع المدفعية المضادة جعلتهم أكثر أمنا .

طوال اليومين المتتاليين لتحليق الطائرة ظل بصره يروح ويجىء إلى الفراغ ، متوقعا ظهور الطائرة فجأة ، امتلأ الجبل بهديرها أو انزلاقها الصامت ، لحظات الفرح الأخرى جاءته ليلا . عندما اتخذ وضع الجنين

لينام ، عندما تحسس ركبته العارية ، برد ديسمبر القاسى تبدد عندما اصغى إلى طلقات متبادلة ، حوار نارى ، العدو لا يطلق النيران من طرف واحد ، قفز واقفا ، التف حول الصخرة التى يحتمى بها من الريح ، صعد مدقا صغيرا ، فى نهايته يشرف على موقع العدو ، ميز طلقات الجرينوف الكلاشنكوف ، طلقة آر ـ بى ـ جى اخترقت الظلام وضجيج الأسلحة الأخرى ، طلقات حارقة اصابت الخيام ، اشتعلت جدرانها ، تناقلت الرياح السنة اللهب فيما بينها ثم استقرت فى اتجاه واحد ، تتراقص ألسنة نارية على الصخر البعيدة ، خيل إليه أنه لمح حيوانا يعدو ، صرخات تعلو ، بعضهم يندفعون فى اتجاهات مختلفة ، تدافعت الدماء إلى رأسه . تبدد آخر ما تبقى من الأحساس بالبرد ، انفجارات حادة ، ثاقبة ، قبضات حمراء تتطاير فى الهواء متوالية كالصواريخ النارية ، عرف الرجال أماكن تشوين الذخيرة . لم يخطئوا واحدا ، يقرأون الظلام ، قبض بيده على حافة الصخر ، على ضوء اللهب يمكنه رصد المفاجأة التامة ، المباغتة ، توقف جندى يهودى ، طويل ، رفع يديه إلى أعلى بدا فى اللهب بلا ملامح ، ظل أسود متحرك ، صراخ ، صرخة قصيرة ظل آخر يندفع فى اتجاه ريح الجبل ، يبدو أنه فقد القدرة على التحقق من الاتجاه ، يندفع إلى الاتجاه المعاكس ، يسقط إلى الأمام وكأنه يرتمى على شىء محاولا الامساك به ، تختلط الظلال ، الصرخات ، أدرك ان اقتحام الموقع يبدأ ،

هذه الظلال التى تتداخل تبدو فى لهب النيران كمخلوقات قدمت من عالم غريب ، من يدرى ربما يهاجم الحسين الآن ، ربما يقتحم الفتى مهران خيمة أرسل وصفها منذ أيام ، سيف بن ذى يزن ، خالد ، الصاعقة ، البرق ، البراق ، كلهم الآن فى الجبل ، عتاقة فى هذه اللحظات فيه آخرون يعرفهم ، يتكلمون مثله ، اذا صمت لحظة قد يدرك الواحد منهم ما يجول بخاطره ، ربما اقترب منه ، احاطه بيده متسائلا « لماذا تبدو مهموما ؟ » ملامحهم يعرفها جيدا ، لا يوجد بينهم المانى ، فرنسى ، مجهول الجنسية ، سليمان الحلبى يتقدم الرجال ، يتقن القتال المتلاحم حتى ذاعت شهرته فى كافة وحدات القتال الخاصة ، أيدى ترتفع ، هل تضوى الخناجر فى اللهب المتزايد ؟ يعرف سليمان الحلبى أحوال الرجال أثناء العملية ، اندفاع سعيد مهران ــ وبسالة الحسين ، وقدرة البراق الفائقة على التنقل السريع مطلقا نيرانه من مواضع عديدة ، قدرة الفتى مهران على استعمال السلاح الأبيض ، دقة أدهم الشرقاوى المخيفة فى اصابة الهدف ، اذ يتحدثون عنه يقولون : « الطلقة منه تساوى رجلا . . » آه لو اندفع مناديا كل منهم ، سيقول انه لم يشعر أنه موثق الا فى هذه الليلة ، انتبه إلى نفسه عندما استنشق رائحة بارود قوية جرحت صدره . سعل ، تابع الاقتحام مفتوح الفم ، لو عرف أى طريق سيسلكونه عند العودة ، فقط يبادلهم الكلام لحظات ثم يولى ، يعانق

الحسين ، يشد على يد سليمان الحلبى ، يقول له « كل شىء تماما يا أفندم » . هل يتمركزون بالجبل ؟ هل يختبئون بإحدى مغاراته ؟ هل يعرفون بوجوده ؟ هل يحملون إليه مددا ؟ هل فى خطتهم الاتصال بهم ، لو رافقهم قليلا ، عندما ينظرون إلى أفروله الصيفى ، إلى تمزقه . إلى اتساعه عليه إذ نحل جسمه ، سيخلع البرق معطفه ويتركه له ، سيقدم الحسين إليه كل ما لديه سيقول إنه اعتاد برد الجبل وطعم حشائشه سيحاول منع ترقرق دموع فى عينيه حتى لا يمضوا متأثرين .

لم يستسلم طويلا لأفكاره ، عليه عمل يجب أن ينجزه فى ظروف مختلفة ، عند الفجر استمر جنود العدو يطلقون مدافع رشاشاتهم وقذائف الهاون فى كل اتجاه ، اضطر إلى الانبطاح أكثر من مرة ، انفجار دانات الهاون فوق الصخور الحادة يدفع بالشظايا إلى مسافات بعيدة . زحف ، جرحت ركبته . لم يتوقف ، يعرف أن فرصته فى استطلاع الموقع حتى أول ضوء ، مع بداية النهار سيحاولون حصار الجبل ، مع الضياء الأول رأى الخيام المحترقة واحصى عشر جثث ملقاة متباعدة ، بدا بعضها وكأنها أجساد آدمية لم تستيقظ بعد ، ظهر جنديان يحملان نقالة عليها جندى مبتور الساق ، يصرخ . . آه . . آه . . وبدا صوته نحيلا ، متسلخا ، غريبا فى بداية النهار الجبلية ، من خلف صخرة ظهر جندى آخر يستند بذراع

واحدة إلى أحدهم ، ثمة بقع سوداء فوق الأرض ، وآثار مادة كيماوية لاطفاء الحريق ، وصناديق ذخيرة فارغة . أدوات طعام منفرطة . حقائب طبية ميدانية مفتوحة ، شرائط ذخيرة لمدفع « جليل » الرشاش متناثرة لم تمس ، مع بداية تزايد الحركة فى المدن البعيدة ، أبرق ريح الجبل إلى الوادى رسالة عاجلة ، اشتعلت النيران فى مركز القيادة ، ثلاثة عشر قتيلا ، ضابطان جريحان ، ثلاث طائرات من طراز « ايلويت » نقلوا عددا من الجرحى ، تدمير الموقع ، مركزا لتشوين الذخيرة ، مركز القيادة .

أدرك أنهم سيقلبون الدنيا بحثا عنه ، بدا أمامه أكثر من تصرف . أما اختفائه فى مكان شديد القرب من المواقع ، أو ابتعاده إلى مكان قصى يمكنه ممارسة عمله منه ، بدا قربه أكثر عرضة للخطر وعائقا بالنسبة لاتصاله المباشر ، قرر الاتجاه إلى القطاع الجنوبى من عتاقة . سيجمد حركته يومين ، ثم يعود أشد قربا . قبل تحركه ألقى على الأسلاك الشائكة المقصوصة . يرصون الجثث إلى جوار بعضها ، تعلو فجأة صرخات حادة ثم تنقطع فجأة ، يظهر جنديان يحملان ضابطا برتبة ملازم فوق نقالة . يرفع يديه وكأنه سيمسك بشىء ما ، الحركة سريعة مذعورة ، اختل ميعاد الافطار اليومى الثابت ، فى تلك اللحظة بدا كأنه يلمح معنى غير مرئى فوق الموقع كله . معنى أحسه من قبل . لكنه لم يجد التعبير المباشر عنه . انه أمام عدو ، من خلال حركتهم ، سحنهم ، متابعته لأحاديثهم اليومية ،

لطريقة أيديهم فى التلويح والاشارة ، تناولهم الطعام ، ثم ما لحقهم من اضطراب ، تدمير ، هذا عدو . وهل يبدو المعنى جديدا ؟ ربما سخر منه أدهم الشرقاوى لو سمع أفكاره . سيقول ريح الجبل أنه هاجم العدو من قبل الليل . فى وضح النهار ، قضى خلف الخطوط أياما طويلة ، لكنه لم يعايش العدو بمثل هذا القرب ، لم يتابع ملامحه بمثل هذه الدقة ، لم يرصد نظام حياته ثم اختلالها مثلما فعل فى عتاقه . خلال الهجوم لا تتاح الفرصة للرصد المتأنى ، يجرى كل شىء بسرعة البرق ، فى أيامه الجبلية رأى تلك السحن الغريبة عنه . أصغى إلى الألسنة المعوجة . مهما جرى فلن يقف احدهما أمام الآخر ويتركه يمضى ، سيحاول كل منهما القضاء على الآخر هذه الخيام المنصوبة ، الأسلاك الشائكة ، الشراك الخداعية ، المعدات المطاطية ، المجمعة من كل عواصم الدنيا ، كل هذه الطلقات والفوهات والأحاديث المتبادلة عبر أجهزة إتصالهم ، كل هذا ، الغرض منه ادخال قطعة حديد ساخنة إلى جسده . إلى جسد الحسين ، إلى أحمس الأول ، إلى سيف ، إلى سليمان الحلبى الهادىء ، الواثق ، الموحى ، إلى عبد الله القلعاوى ، ربما يعرف العدو بعضهم ويجد فى أثرهم . عندما ولى وجهه تجاه الجزء الجنوبى لازمته فكرة أن هؤلاء . . عدو . . حامت طائرات الهيلوكبتر كما توقع ، عادة لا يغير موقعه إلا مع مجىء قوات جديدة للعدو ، يغيرون رجالهم فى الجبل كل سبعة أيام ، لا يكاد يحفظ ملامح

القوة حتى يتم تغييرها . . أيام وصولهم الأولى تتزايد طلقاتهم ، يلتزم الحذر لأن افراد القوة الجدد تنتابهم رغبة فى استطلاع ما يحيطهم ، يكثرون من الحركة فى اليومين الأول والثانى ، ثم يتصرفون بتلقائية أكثر مع اليوم الثالث ، لم يدر إلى أى اتجاه مضى سليمان الحلبى والرجال ؟ لم يحقق اتصالا بهم ، ربما التقطتهم طائرة هيلوكبتر ، تناولوا افطارهم الساخن فى ميس القاعدة ، بعد تقديم تقاريرهم عن الهجوم يشيدون بالمعلومات التى يرسلها ريح الجبل ، من خلالها عرفوا المداخل الخالية من الألغام إلى القاعدة . معرفتهم أماكن النوم والخيام الخالية المنصوبة بغرض الخداع ، من موقعه الجنوبى عمل فى نفس اليوم ، وجه رسالة من ريح الجبل إلى الوادى ، أجرى العدو سلسلة من التفجيرات بغرض انشاء موقع ملاحظة جديد . تم تدعيم القوة بسرية من جنود المظلات . تقوم الهيلوكبتر المسلحة بدوريات منتظمة فى السادسة إلا عشر دقائق . التاسعة . العاشرة والنصف . الرابعة مساء ، لم يطر الطيارون على ارتفاعات منخفضة ، حوالى الثامنة مساء سقط المطر فجأة ، بغزارة ، ويبدا صوت أصطدامه بالصخور كأنه صدى لطلقات بعيدة ، انكمش الجبل ، وتحركت السحب بنشاط فى المساء ، حجبت النجوم الكثيفة ، ولامس بعضها قمة عتاقة . اقتحم البرد عظامه فى موجات متتالية حتى لامس نخاعه ، قطرات المطر كأنها تسقط فى قلبه . بدأ الماء يتجمع فى خيوط تتخذ طريقها بين الصخور

محدثا خريرا ، غـامت عيناه . بـدأ فى أذنيه وشيش منبعـه داخل رأسـه مصحوب بصفير نحيل حاد متصل ، هل سيمـوت ؟ فكر فى الجهـاز . لحسن حظه انه يحفظ الشفرة ، ستروح معه ، عند منتصف الليل خف الوشيش . اصغى ، أهوالوهم ؟ هل بدأت التخيلات ؟ ماذا إذن ؟ فى بداية الليل ظن الموت قريبا وها هو يعيش ، ويأمل فى قضاء العديد من المهام غدا ، وبعد غد ، لا . . ليس هذا وهما ، الجبل يردد الصدى الذى اخترق المطر ، ثمة نداء يطلقه جندى ما ، فى البداية بدأ قصيرا موجزا ، وعندما تكرر ازداد طولا ، زحف فـوق الصخور المبللة بـالمياه . ود لـو اخترقت عيناه السواد . حتى ضوء النجوم الباهت تـوارى خلف الغيوم الثقال ، انتظر حتى يتكرر النداء مرة ثالثة ، ثم يحاول رصـد اتجاهـه ، سيثبت فوق أعتى الصخور إليه ، سيحذر صـاحب الصوت أولا ، من الصباح لأن العدو فى الجبل ويرصد الخطوة ، والهمسة . ثم يزوده بما يطلبه من معلومات ، يتحدث ، يتكلم يقول الفاظا ويلقى ردا ، ويتأمل ملامح مألوفة ، سيتمنى لو أن لديه ما يفيض ليعطيه ما قد يحتاج إليـه لكن . . سيرى ابتسامة الود ، ثم العناق الذى يبدد البلل ، والبرد الكاوى ، متى يجىء النداء الثالث ؟ لماذا تأخر فى رصد مصدر الصوت ؟ لماذا لم يتتبعه بعد أول نداء ، يلوم نفسه ثم يصغى ، أين ، متى ، حتى الفجر لم يصغ إلى أى صوت ، ربما عثر زميله على من نادى عليه . قابل النهـار بخيبة ، قـرر

التجول فى لحظات اشراق الشمس الضئيلة لتجفيف ثيابه ، خاصة انها التصقت بجسده ونفذت رائحة القماش إلى أنفه ، ولاستطلاع مواضع نمو الحشائش التى يمكنه أكلها ، سيصف لزملائه فرحته عندما رأى قشرة صفراء مستقرة بين الصخور كالنداء ، كالرسالة ، كالشفرة التى تطلب حلا ، قشرة ثمرة يوسفى . دار حولها على أربع ، بالتأكيد ليست شركا خداعيا ، كلها فى متناول بصره ، لا تتصل بشىء قريب أو بعيد ، لا ينمو اليوسفى بهذا الحجم إلا فى شتاء مصر ، ومصر فقط ، أحد الرجال القاها ، ربما أثناء تجواله ، خلال قيامه بمهمة ، التقطها بسرعة ، ضمها إلى يديه . بسط راحتيه ، تأملها ، تشممها ، قضم قطعة منها ، بدأ الطعم الحامز غريبا فى فمه ، دار بعينيه حوله ، بعد عشر خطوات قطعها منحنى الظهر لمح ثلاث بذور ، لكنه لم ير أثرا بعد ذلك ولمسافة أكثر من كيلو متر فى اتجاه الوادى ، وإلى طريق المدينة ، فى هذا اليوم فاجأته الوحشة مع مجىء الشفق إلى السماء الصافية المغسولة بالمطر ، سيقول إنه احتمل ، سيدور الحديث بين زملائه داخل مقهى بين ضجيج لاعبى الورق . مرور السيارات فى الطريق . دوران الملاعق فى أكواب الشاى ، قرقرة النراجيل ، سيتابع حركة الناس فى الطرقات ، إيقاع الحياة فى الأماكن الآمنة . وحركة الحياة التى لا تهددها أخطار ، ولا تنوء فوقها

وحشة جبلية ، سيصغى دائما إلى الراديو فى نفس الميعاد ، ربما جاء النداء بعد حين ، بعد سنة ، بعد عشر سنوات ، بعد أربعين عاما .

من الوادى إلى ريح الجبل . . .

وعندئذ يفارق أمن المدن . يرحل إلى مكان يطلب منه التواجد فيه . سيقول إنه قبل صعوده عتاقه لو عرضوا عليه قضاء ليلة واحدة مقابل ألف جنيه لرفض ، وها هى الأيام تتجاوز المائة ، هل سيفتح نافذة بيته يوما ويتطلع إلى عتاقة الباقى أبدا . عتاقة الراسى ، ويسأل نفسه ، هل قضيت كل هذه الأيام الشتوية فوقه ، عندما يسألونه عن أشد ما أوجعه ، سيقول ، خفوت النداء خلال الأيام الأخيرة ، لكنه لن يسترسل فى سرد أوجاعه ، سيغير الحديث . سيبعث الضحك إلى قلبوهم ، تماما كما حدث أثناء التدريب . سيقول إذا استمع إلى نكته أو حادثه طريفة يدخرها ، يجهد نفسه فى تذكر تفاصيلها ، يحكيها لزملائه فى المعسكر ، سيقول إن أثناء استطلاعه للقطاع الجنوبى من عتاقة ، توقف فجأة ، توارى فى شق ضيق بالجبل ، ثم عاود النظر ، أمامه ، باتجاه الوادى ، على بعد حوالى نصف كيلومتر ، فوق الصخور النارية المدببة الحادة استقرت عربة مجنزرة ، تقف بمواجهتها ، كيف جاءت إلى هنا ؟ لا يمكن للجنزير صعود هذا المنحدر الوعر . ولا يمكن أن يتحرك فوق هذه التضاريس الوعرة ؟ ماذا . . هل ينصبون له كمينا ؟ أهذه عربة هيكلية جاءوا بها للتضليل ،

ضيق عينيه . لم يخطىء ، فعلاً عربة مجنزرة ، تقف هامدة ، خالية من الحركة ، لا يوجد جندى واحد حولها أو داخلها ، هل أنـزلتها إحـدى طائرات الهيلوكبتر . متى . أدركته حيرة . بدأ الجبل كله لغزا مستعصيا على الاستطلاع أو الاكتشاف يفاجئه كل لحظة بما هو غير متوقع . هـذا الصمت الذى تغرق فيه العربة يحيره . ربما يكمنون بالقرب منها ، ربما تحقق خلوها ، عندئذ يمضى إليها ، يفتشها ، ربما عثر على شىء ، تسلق المرتفع قفزا ، غابت العربة لحظات عن عينيه ، بـدت الظلال ثقيلة لها قوام ، تنأى بالعالم عنه . كأنه أفلت من جاذبية الأرض أو سبح فى فراغ ، عندما أطل من بين الصخور ليرصد العربة كاد يضحك . . ما ظنه عربة مدرعة ليس إلا صخرة نحتتها الطبيعة بعناية ، سوت أطرافها حتى لتبدو من بعيد كمجنزرة ، قطعة من الصخر الرمادى المصقول يختلف صخره عن طبيعة المكان . .

سيقـول إنها ليست المرة الأولى ، فـأثناء تـطلعه من خـلال منظاره المقرب ، رصد بقعة سوداء ضخمة فى الوادى ، بقعة ثابتة . مستديـرة الشكل ، حار فى تحديدها وبعد لحظات أكتشف أنها نقطة سوداء التصقت بزجاج المنظار المستدير ، خفق قلبه . هل بدا بصـره يرصـد ما هـو غير موجود . إن دوارا يباغته على فترات متقطعة . لكنه لا يبالى . يمضغ بعض الحشائش الجبلية الطرية التى تفرز عصيرا غليظ القوام كالصمغ ، تدب فى

عروقه حرارة ، تمتلىء معدته بالعجينة الخضراء الثقيلة ، ربما احتاج وقتا حتى يستعيد قدرتها على هضم الأرغفة ، والخضار المطبوخ ، واللحم ، والحلوى . .

فى هذه الأمسية الآتية التى لا يدرك متى تجىء ، سيسأله سعيد مهران مداعبا :

والنساء . . وماذا عن النساء ؟

لن يدركه خجل ، ! لكنه سيقول إنه لم يفكر فى امرأة معينة بالذات ، ولم يستعد حوارا جرى ذات يوم ، ولم توجعه ذكرى أمسية ناعمة . عندما يتحول كيان الإنسان كله إلى توقع وانتظار ، عندما يعيش الجسد حالة ترقب دائمة ، لا يدرى متى سيصطدم بالعدو؟ لا يدرى إلى أى حد سيقاوم البرد والمطر والجوع ، فلا مجال للرؤىء الناعمة ، سيصمت قليلا . يعرف أنهم يصدقونه ، كلهم قضوا فترات طويلة خلف الخطوط ، الحسين أمضى ثلاثة شهور بصحبة البراق يستطلع ما حوله شرم الشيخ ، سليمان الحلبى قاد دورية قتال هاجمت محطة رادار غربى رأس سدر ، ثم اختفوا شهرا حتى عادوا إلى الوحدة . لكنه سيكون صريحا معهم . سيقول . . « هل تذكرون عندما خرجنا إلى القناطر الخيرية معا ، تذكرون أننى تغيبت عنكم وقتا . . » . فى هذا اليوم أثناء تمدده تحت شجيرة خضراء تلقى حولها ظلا ، رصد فتاة نحيلة ، متوسطة الطول ، شعرها

ناعم كليل أحكم إطفاء كل ذرة ضوء فيه . وجهها محدد الملامح ، متسعة العينين ، جمالها برى ، صريح ، اقتحمه اقتحاما . لم يدر أين رآها ؟ اتشبه نجمة سينمائية أجنبية رآها فى صباه ؟ أتشبه خيالا حلم به ؟ لا يدرى لكنه وجد نفسه يقوم ، واتته جرأة كلحظة الاقتحام التى تنأى فيها كل الاهتمامات والأفكار التى لا صلة لها باللحظة ، غير أن مشاعره ارتجفت وقتئذ عندما تتبعها ، طريقة مشيها أعجبته . كأنها تخطو على أطراف أصابعها ، يدها تعبث بعقد بسيط تدلى حول عنقها الذى بدت مساحة كبيرة منه ، زرار القميص الأعلى تركته مفتوحا بأهمال ، أحست أن هناك من يتبعها ، رمقته بعينين سوداوين كعيون الغجر ، وخيل إليه أن شفتيها المحددتين صرحتا لابتسامة بالظهور ، لم تفارقه لحظة الاقتحام . تحدثت إلى بعض صديقاتها ، ووقف يرقبها من بعيد ، استنتج أنها جاءت إلى الحدائق فى رحلة جماعية . التفتت ضاحكة ، غاصت داخله بعنف ، مشت بمفردها بعيدا عن رفيقاتها ، اقتفى خطواتها ، تحت شجيرة قريبة من النيل قعدت فجأة ، استندت بظهرها إلى جذع الشجرة ، واجه الجمال البرى المتألق والحمرة التى تنبع من ملامح الوجه كما ينبع الشفق من السماء البعيدة ، سألها أهى من جامعة القاهرة ؟ قالت بايجاز كشفرة أنها من الاسكندرية ، لا يدرى لماذا خفق قلبه عندما قالت ، الاسكندرية ، ربما لأنه يفكر فى المدينة كهدف للراحة ، كثيرا ما فكر فى الذهاب إليها مع

زملائه ليلة واحدة . يرى البحر الممتد الآمن ، البحر المختلف عن الخليج المحدود بشاطئين يقعان فى نطاق النظر ، قالت إن اسمها « أروى » ، كأنه يخترق نطاق الدفاعات الأولى ، الجملة تلى الجملة ، وتجىء لحظة قريبة يمشيان فى بريق هادىء ، يمسك يدها ، ترمقه بعينيها الواسعتين ، فجأة قامت كالبغتة ، لوحت بيدها ، توقف ، لم يمض خلفها ، فى اليوم الأول بدا ما حدث عبثا صبيانيا لا يليق به . وفكر أنه أخطأ ، ولن يقص ما حدث لانسان ، لكن فى الأيام التالية فوجىء بطيفها يقتفى أثره . كلما استدعاها إلى ذهنه بدت ملامحها الصافية كسماء صالحة للطيران واضحة ، يخفق قلبه ، يدركه حنين غامض إلى لقاء رهيف . وهمس ناعم . وأشواق متبادلة ، وانتظار حلو ، ولقاء حار ، ملامحها تمثل كل ما تعد به الحياة الآمنة . فى الجبل جاءت إليه من كل اتجاه ، فى لحظة معينة إتكأت على كل الصخور الوعرة ، المجدبة ، القاحلة ؛ زرعتها بابتسامات لا تحصى ، ورقة لا تبين ، وكاد يسمع صوتها يهمس ، أروى ، لو خطا خطوات لـ . . لو امتد الحديث ، تساءل عما تفعله الآن ، ورآها تجلس فى حجرة ، أو تمشى فى طريق ، أو تتأمل البحر . عندما ألحت عليه فى هذا القطاع الجنوبى خيل إليه أنه تجاوز حياته العادية بمراحل ، وأن ما جرى جرى ، وما يفكر فيه حدث فى تاريخ مضى ولا يبعث إليه إلا الأسى . . حاول غض البصر عن ملامحها وكأنه يغلق أذنه عن نداء ناعم يستهدف التفاته إلى

الخلف ، وهلاكه فى الوديان ، فى الليل المثقل بالنجوم بدا القمر رقيقا يشف عما وراءه ، وفوق حافة الجبل ، على شاشة السماء رصد ثلاثة حيوانات قدر أنها ذئاب ، تمشى فى طابور ، أهذا إذن مصدر العواء الذى يخترق أحشاء الجبل ؟ . انتبه إلى همسات النجوم الخفية ، تأكد أن للنجوم لغة ، وعيونا ترقبه من خلالها ، رصد نقطا مضيئة تتحرك فى السماء ، بعضها يظهر كل ليلة فى ميعاد ثابت ، أقمار صناعية ، من ميعاد مرورها يمكنه تقدير الوقت بدون النظر إلى ساعته ، لا يحتاج إلى أى تنبيه ليوقظ ، يكفى أغماض عينيه وقرار منه بأن يصحو بعد نصف ساعة ، لا يتجاوز الوقت الذى حدده لنومه بدقيقة واحدة مهما هاجمه التعب وتزايدت وحدته ، إذا صدر صوت لا ينتمى إلى الجبل يفتح عينيه فورا . لو تغير ايقاع المطر ، لو تحول إلى سيل فورا ، بدا كأن هناك حواسا جديدة اكتسبها خلال هذه الأيام المتعاقبة ، المتوالية فى أصرار لا يوقفه الجيل حولى تجعله ينحنى فجأة وبعد لحظات تهدر طائرة هيلوكبتر ، يدرك اقترابها قبل أن يسمع أى مقدمات لدوران محركها أو مراوحها ، هكذا قرر فجأة الانتقال من المنطقة الجنوبية للجبل إلى القطاع الذى يتواجد فيه العدو .

سيسألونه . هل فوجىء بانسحاب العدو . سيقول إنه فوجىء إلى حد ما ، فبالنسبة لما أبدوه من استعدادات . وما اقاموه من منشآت قدر

فترة طويلة لبقائهم ، سيقول ان طائرات الميج اغارت ثلاث مرات على مواقع العدو قبل انسحابه . وإن صوت اطلاق الفيكرز جسد له شجاعة الطيارين الذين هبطوا حتى كادت بطون الطائرات تحتك بالصخور ، طاردوا افراد العدو ، فى البداية لاحظ انسحابهم من نقاط أنشأوها إلى مواقعهم الرئيسية ، ثم جاءت طائرات الهيلوكبتر ، نقلت بعضهم ، لم تعد بقوة بديلة ، رصد فرح الجنود واحدهم يرقص رافعا يديه . تابعهم بدقة ، ربما اخفوا بعض المعدات ، ربما عمدوا إلى تشوين ذخيرة أو سلاح فى مخابىء سرية احتياطا لعودتهم ، ربما تركوا آلات دقيقة تحصى الحركات ، وتلتقط الصور ، بعد خلو الجبل منهم مشى حذرا ، المدقات ملغومة ، من يدريه ما يحفل به الجبل ؟ عاد يرقب مدينة السويس ، انتظر النداء ليعرف التعليمات التالية ، حتى يجىء قدر إلا يتحرك إلا وثبا كعادته ، ولا يمشى إلا حذرا ، ولا يتطلع إلى السماء إلا متخفيا ، استمر ينأى عن المدقات المعروفة بسهولة المشى فيها ، من يدرى ما يبطنه الجبل ، قبيل الغروب تقدم باتجاه الموقع المعادى ، تجنب وطء المواضع الرخوة ، مشى فوق الصخور الصلدة ، لم يعد فى حاجة إلى لف حذائه بفرو الخروف حتى لا يدع أثرا لقدميه ، لكن الحذر لم يفارقه ، تأمل الموقع الرئيسى الذى يخطو فوقه لأول مرة ، المكان الذى طالما مسحه بعينيه ، دار حوله ، هكذا رأى جنود العدو الأماكن التى كمن فيها ، تحرك خلالها ، أدرك إلى أى حد

كان معرضا لأبصارهم ! ابتسم ، ألم ينجز مهمته ؟ لكن ما للنداء تأخر ؟ فى ضوء الغروب راح يتأمل البقايا ، زجاجات مياه فارغة ملاعق بلاستيك ، علب بيرة مغلقة كتب عليها بالألمانية ، علب مربى ، علب سجق ، هكذا يبدو من الرسم الموضح ، تزايد انحناؤه ، حتى جلس القرفصاء ، دار بعينيه حول علب الطعام المحفوظ ، بقايا معجون أسنان ، هل يمد يده ، يلتقط أحدى العلب ، يتذوق ما لم يقرب فمه منذ أيام طويلة ؟ أى جوع باغته أمام علبة سردين مستطيلة ، أنه يحب السردين لكن أصابعه ظلت محيطة بخصره ، ربما انفجر الهلاك كله ، على مهل قام واقفا ، تلفت حوله ، هل يرقبه أحد ؟ علب ملقاه عمدا ، متناثرة فى المكان كله ، بعضها ليوهم العدو ريح الجبل وزملاءه بالمستوى المرتفع لنوعية طعامه ، بعضها شراك خداعية ، ترددت عيناه كثيرا ، اقدمت نظراته ثم احجمت ، طعام العدو ، تلفت حوله ، عاد يسلك الممر الضيق ، تأمل نزول الليل وفى اللحظات غزاه السكون الموحش ، سينام حذراً ، ولن يستسلم لبرد الجبل ، أضواء متناثرة تنبعث من مدينة السويس ، وكلما تزايد الليل كلما اختفت ملامح البيوت وبدت الأضواء الباهتة وكأنها تسبح فى بحر من العتمة ، فى الصباح ينتابه نشاط ، يمضى إلى كافة القطاعات ، يقفز فوق الصخور ، يتوارى ، سيقول إنه خلال تلك الأيام واجه صعوبة فى المشى بقامته مفرودة ، يبلغ اقصى سرعته إذ

يندفع منحنيا ، تكاد يداه أن تلامسا الأرض الصخرية ، تردد أمام بعض الكهوف العميقة لكن من يدرى بماذا يأتى به الجبل ؟

سيقول إنه عندما رصد الجندى لم يصدق عينيه فى البداية ، فوق أعلى الذرى ، حيث يبدو الوادى إلى اليمين كوعاء ضخم من الصخر والنتوءات ، وإلى الخلف ، بعيدا ، يمتد خليج السويس نائيا تسبح فوقه سفن ، تبدو صغيرة ثابتة ، لا تتحرك ، لكنه لو عاود النظر بعد ساعة سيجدها اختفت ، فى هذه النقطة بالذات رآه ، رصد ملابسه وملامحه وطريقة مشيه ، وظله الذى تحرك على الصخور الرمادية ملاصقا له ، خفق قلبه ، وثب فوق الصخور ، قرر أن يواجهه من الأمام ، ربما لو صاح عليه من بعيد ينبطح الجندى ويصوب سلاحه إليه ، عندما يرى زميلا له يبدو أمامه فجأة سيدركه فرح إذ يلتقى بأحد رفاقه هنا فى هذا الجبل ، سيحاول تخفيف المفاجأة إلى أقصى حد . بعد بريق اللقاء يتعرفان ، سيبلغه ما يود نقله إلى الوادى ، إلى سليمان الحلبى وبقية الأحباب والرجال . سيقدم كل ما يطلبه ، أى معاونة ممكنة . قفز من فوق صخر مدببة حادة إلى المدق مباشرة ، دار حولها ، أصبح فى مواجهته ، لم يفاجأ عندما شهر الجندى مدفعه ، لكنه فوجىء بالملامح ، يعرف الرجل ، لكن الذاكرة لم تسعفه فورا ، ابتسم بود ، بدا انفعاله واضحا . .

أنا ريح الجبل . . .

تراجع الجندى إلى الخلف ، أدرك ريح الجبل أى مفاجأة مزعجة يمثلها بالنسبة لهذا المقاتل الذى يقوم بمهمة ما فى الجبل . رأى نفسه بعينى الجندى ، وقفته على أطراف أصابع قدميه ، انحناءته . لحيته الكثيفة ، عيناه الغائرتان ، كما أنه لم يدر أى لون أصبحت بشرته بعد أكله الحشائش الجبلية طوال هذه المدة كلها . .

لا تؤاخذنى . . امضيت حتى الآن مائة يوم وسبعة أيام . .

هز الجندى رأسه ، ما زال مباغتا .

يمكننى أن أقدم إليك كل مساعدة أقدر عليها . . اننى أعرف الجبل كما أعرف كفى . .

خطا تجاه الجندى ، فوجىء بزعقة . .

قف مكانك .

فوجىء بالصرخة ، فوجىء بإيقاع الصوت الآدمى فى أذنيه . فوجىء بأنه يعرف الجندى ، قفز الاسم فجأة إلى ذهنه كتمهيد نيرانى . .

أنت صابر . . الباشجاويش . . من استطلاع الدفاع الجوى . .

هز الجندى رأسه . .

لا . . . .

اقتـرب خطوتـين ، لا يهمه اطـلاق النيران عليـه ، صوتـه يخـرج مضـطربـا ، أنـه مفـاجـأ بـإيقـاع الصـوت الآدمى ، لا يبـالى بجفـاء الباشجاويش ، سيزول هذا حتما وبعد لحظات يتبادلان الود ، ويحكى كل منهما عن حكايته تماما كالمجندين الجدد فى تعارفهم الأول إلى بعضهم . يتراجع الباشجاويش بقدر ما يتقدم من خطوات . .

إننى أعرفك . . جئت إلينا فى المركز للتدريب على وسائل الاستطلاع البصرية . .

بدا الجندى مترددا ، توقف عن التراجع ، ها هى اللحظات المنشودة تدنو . لكنه فوجىء مرة أخرى بصياح الرجل . .

ابق مكانك . .

توقف ريح الجبل .

اعرف أن موقفك صحيح ، تصرفك سليم تماما . . لكن يجب أن تسمعنى . . أنا أتكلم لأول مرة منذ مائة يوم وسبعة . . حتى تطمئن . . الم تقض فى المركز أربعة أسابيع .

قال الباشجاويش وهو يتراجع خطوة أخرى . .

صف لى المركز . .

سيقـول إنه ولى بنـظره بعيدا لمـدة لحظات ، ثم بـدأ يستعيـد كـل التفاصيل ، مدخل الباب ، كشك الحراسة ، المزلقان الخشبى ، مكتب قائد سرية الحراسة إلى اليمين ، وصف كل ما يمكن أن يراه المار من أمام المركز ، ثم ذكر اسم الضابط الذى أشرف على تدريب الجاويش ، سكت لحظة ، نظر إليه الباشجاويش ، يغوص بأسنانه فى شفتيه ، هبت رياح باردة ، خفيفة لكنها حادة ، بحركة لا أرادية غاصت عنق ريح الجبل بين كتفيه ، هل يقف أمامه حقيقة رجل يعرفه ، وأين ؟ فى دروب عتاقة ، للحظة خيل إليه أن ما رآه وهم . لكنه تحدث إليه ، يراه . لو مد يـده سليمسه . لأول مرة يصغى إلى صوت آدمى لا يأتيه عبر الراديو ، أو يصله مع هبات الرياح همسا من مواقع العدو . .

. . غير صحيح . . أنا لا أعرف ما قلت . . ولا أعرفك . .

سيقـول للحسين أنـه لم يدر سببـا لانكار البـاشجاويش بعـد كـل ما ذكره . ربما أراد الاستزادة بذكر الأدلة . ظن أنه عبر حاجز الحذر إلى الباشجاويش تأكد أنه هو صابر بعينه .

اسم غير صحيح . . ليس اسمى صابر . .

توقف ريح الجبل مكانه ، لا يدرى لماذا شعر بخيبـة فجأة ، ربمـا لادراكه أن الحاجز لن يزول ، مهما فعل فلن يتحدث إليه الباشجاويش ،

ربما يلتزم التعليمات بعدم الكشف عن شخصيته خلال مهمته فوق الجبل ، ربما يخشى شيئا ما ، لكن . . هل يدعه يفلت هكذا ؟ الإنسان الوحيد الذى إلتقى به . .

يجب أن تسمعنى . .

يتراجع الباشجاويش .

لا أعرفك . . ابق مكانك . .

يزعق ريح الجبل .

باشجاويش صابر . .

يصيح الباشجاويش والمسافة تتزايد بينهما . .

ليس اسمى صابر . . قف مكانك . .

يوشك أن يتعثر أثناء ابتعاده ، يزعق ريح الجبل . .

انتبه خلفك صخرة . .

يتوقف الباشجاويش شاكا ، يلتفت بسرعة ، على مهل يستدير ، يختفى عند المنحنى ، يعلو ريح الجبل الصخور ، يتخلل الشقوق ، المدقات الصغيرة ، يشرف على الوادى كله ، والخليج ، يلمح

الباشجاويش ، مبتعدا هناك ، أدركه دوار ، وغصة زحمت حلقة ، هل يدعه يمضى هكذا . .

أنا ريح الجبل . . قل لهم انى هنا . . انتظر النداء . .

التفت الباشجاويش إلى أعلى . . بدأ كأنه قال شيئا . .

ماذا تقول ؟؟

لم يجبه ، استمر مبتعدا ، سيقول لسليمان الحلبى أن هذا اوجعه ، ما آلمه أكثر انه فتح الراديو فى الميعاد ، تحدث مذيع ، تحدثت مذيعة . .

أصدقائى . . صديقاتى . .

يؤكد صوت ناعم أن ساعات كولمانت العصرية أدق آلات ضبط الوقت . .

يسجل ضيف أحد البرامج ، يقول . . انها لبادرة طيبة . .

فى محطة أخرى ينصح صوت غليظ المواطنين باليقظة والتزام الحذر . .

دار بعينيه فى الوادى ، اختفى الباشجاويش ، عند العصر والسكون الموحش يهدده بغزوة ، رآهم عند خط السماء ، حيث تلتقى شواهد الصخور المطلة على الوادى بالفراغ اللانهائى ، قفز فوق صخور حادة

يصعب المشى فوقها ، تأكد أنه رآهم ، أربعة جنود وضابط . مروا أمام صخرة معلقة ، خيل إليه أن الباشجاويش بينهم ، يبحثون عنه ، قـرر اختراق أقصر المدقات اليهم ، علت به الصخور ثم انخفضت ، عندما نظر إلى نفس الموضع لم يرهم ، جاءوا اليه ، أنهم على بعد خطوات منه ، سيبـادلـونـه الحـديث حتى لا ينسى الكـلام ، ربمـا رأى فيهم أدهم الشرقاوى ، الفتى مهران ، البراق ، لكن أين مضوا ، الى أين ، الليل المقبل الذى لن تـطلع شمسه أبـدا ، تلفت حولـه ، حتما سيجيئـون ، سيتقدم منه سليمان الحلبى ، ضابطهم الشاب ، سيقول . .

« أدوا التحية لمن قضى فوق الجبل مائة يوم وازدادوا سبعة . . » .

سيقدمون اليه ماكينة حلاقة . ومعطفا ، وصابونا ، لكنـه سيابى ، لابد أن يواجه كل زمـلائه ، سيـرى انطبـاعهم الأول ، سيجهد نفسـه ألا يبكى ، إذا لم يعرفوه ، سيبقى فى أنتظارهم ، ربما جاءوا إليه الآن ، لا يدرى متى سيجيئون ؟ ولا بأى أرض يموت ؟

« أدو التحية لمن قضى فوق الجبل مائة عام وازدادوا سبعة . . » .

فى الليل سيحاول تفسير لغة النجوم . ربما تضمنت همسهساتها نداءً خفيـا ، أنه يتلفت حـوله ، السكـون الموحش قـادم ، حثيث الخطى ، يقوم ، يحبو على أربع فوق صخرة مـدببة ، يقف عنـد أعلى نقـطة فوق

الجبل ، يحيط فمه بيديه . يزعق من فص الحنجرة مناديا :

« يا حسين . .

يا سليمان يا حلبى . .

يا أدهم . .

يا براق . .

يا سيف بن ذى يزن .

يا صاعقة .

يا . . كل الأحباب . .

أنا ريح الجبل . .

أنا ريح الجبل . . هل تسمعنى ؟؟

يونيو ١٩٧٦